

الحمد لله الذي هدانا لهذا
فإن كنا لولاه لفلان

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع مراد حسى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بروكسل - بلجيكا - تلفون 83091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
الرياض - دار الشروق - تلفون SHROK 20175 LR

فَتَانُ رُوقِ شُوشِيَهْ

أَخْبَارُ عَشِيرَةِ قُصَيْدَةَ لِحَبَّ
وَفِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ

دار الشروق —

هَذَا الْكِتَابُ

بقلم : فاروق شوشة

كثيراً ما كنت أتوقف - أثناء البحث في كنوز لغتنا الجميلة - أمام نصّ شعري فائن ، لشاعر عربي عاشق ، ينطق بصدق العاطفة والشعور ، وجمال التعبير والتصوير والأداء ، وأقول لنفسي : ما السبيل إلى أن يضمّ هذا النصّ وأمثاله من عيون الشعر العربي ، كتاب واحد ، يسهل الاطلاع عليه ، والرجوع إليه ، والطواف بين صفحاته . . وكانت البداية . .

إن شعرنا العربي على امتداد قرون متطاولة حافل بالكنوز الثمينة ، والدرر الكامنة ، تنتظر دائماً من يجلوها ويعرضها ، مشرقة وضيئة ، نابضة بالحس الحضاري والوجدان الإنساني اللذين اتسمت بهما خلال هذه المسيرة الطويلة الممتلئة . وفي الوقت نفسه ، ما أندر المجموعات والمختارات الشعرية التي صدرت عن مكتبتنا العربية ، قديمها وحديثها ، لتضع بين يدي القارئ العربي ، والقارئ الأجنبي أيضاً ، تصوّراً عاماً لروح الشعر العربي ، وإطاراً عاماً لأبرز شخصياته وأعلامه ، وأكثر ملامحه صدقاً وأصاله ، اللهم إلا بضعة دواوين شعرية قليلة كالمفضليات للضبي والأصمعيات لأبي سعيد الأصبغي

وجهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ومختارات شعراء العرب لابن الشَّجري .

ثم كان هناك لون آخر في تبويب هذه المختارات وتصنيفها بدأه أبو تمام بديوان الحماسة وتابعه البحتري ، والخالديان ، وابن الشجري في حماساتهم ثم أبو هلال العسكري في ديوان المعاني . وأخيراً كان ديوان الشعر العربي الذي اختاره وصنّفه وقدم له الشاعر علي أحمد سعيد (أدونيس) . . . وكان صدوره منذ سنوات قليلة .

وظلت المكتبة العربية ، مكتبة الشعر العربي ، تعاني هذا الفراغ الكبير ، خاصة ونحن نترك الآن عصور الموسوعات والكتب الأمهات وتنتجه مع إيقاع العصر وازدحام متطلبات الحياة إلى المختصرات والمختارات : المبوبة ، الموضوعية الاختيار ، المعتمدة في تصنيفها على ذوق عصري ، وفكر جديد ، يكشفان في الأثر الأدبي والشعري أبعاداً جديدة ، ويُسلِّطان عليه رؤية جديدة كاشفة ، وبهذا يصبح تحاورنا مع التراث تحاوراً خصباً ببناءً ، لا يكتفي بمجرد التكرار أو إعادة الحفظ والاستظهار ، وإنما يتجاوز ذلك إلى إعادة عرضه وتنسيقه وتنظيم جداوله وروافده ، وإعادة اكتشافه والوعي به من خلال حساسيتنا الجديدة ورؤيتنا العصرية المتفتحة ، بهذا وحده نعطي للتراث فرصة أن يحيا فينا وأن نحيا فيه ، وأن يصبح له حق الامتداد الفعال والصحيح في حياتنا الجديدة .

وآثرت أن تكون البداية قصائد الحب في شعرنا العربي ، وما أكثرها ، وما أحفلها بالقيم الإنسانية والفنية والحضارية . ماذا لو اخترت من بينها أجمل عشرين قصيدة ، ليعيد تأملها وتذوقها القارئ

المعاصر ، مع قدر يسير من التقديم ، للنص والشاعر معاً ، بحيث يتم وضع القصيدة في إطار عصرها ، وفي داخل مناخها النفسي والتاريخي ، وفي إطار حركة الشعر العربي ودورانه المستمر .
وتوقعت أن يثور سؤال طبيعي : ولكن لماذا هذا الرقم بالذات (عشرون) ؟ لماذا لم تكن هذه القصائد ثلاثين أو خمسين أو خمسين وعشرين أو أكثر أو أقل ؟
وهو سؤال كان سيتخذ له مكاناً أيضاً لو أن الاختيار قد وقع على رقم آخر ، والأرقام أولاً وأخيراً مسألة اعتبارية ! .

هذا الكتاب إذن رحلة مع عشرين قصيدة حب ، تبدأ من تخوم العصر الجاهلي ، فتتخير لهذا العصر شاعراً يمثل حسنيته ونهمه وإقباله على متع الحياة وتوزعه بين يوميه : يوم فروسيته وكرمه ويوم لوه ومؤانسته ، وهي سمات العربي الفارس القديم ، في حبه ونظرته إلى المرأة كما نجدها لدى المنخل الشكري .

ثم نتابع المسيرة ، ووفقاً مع صفحات شعرنا الأموي والعباسي ، يطالعنا وجه عمر بن أبي ربيعة : فتى قريش اللاهبي الماجن المولع بتعقب الحسان والتشبيب بهن ، ووجوه الصفوة الممتازة من الشعراء العذريين : مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس لبنى وكثير عزة ، وعلى مقربة من هؤلاء العباس بن الأحنف ، وبين الطائفتين ينفرد يزيد بن معاوية ، ثم نطالع وجوه ابن الرومي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي ودوقلة المنبجي وابن زريق البغدادي ثم صفى الدين الحلي - على غير ترتيب مقصود - وكلها وجوه تضيف لتجربة الحب في الشعر

العربي ألواناً وتنوعات ومذاقات مختلفة ، تُثريها وتعمقها ، وتكشف عن جوهر الإنسان العربي والشاعر العربي في نظرتة إلى الحياة والوجود من خلال المرأة . .

وعلى مسافةٍ من هؤلاء نلتقي بوجهين آخرين يمثلان شعر الأندلس والمغرب العربي هما : ابن زيدون والحُصَري القيرواني ، ثم يطالعنا العصر الحديث لتتخَيَّر من بين أعلامه : الشابي وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل .



يبقى بعد هذا أن نشير إلى أن كل قصيدة من هذه القصائد العشرين امرأة جميلة ، امرأة معشوقة ، افتن في تصويرها وتجسيد مفاتها وهُيام بها شاعر عربي ملهم ، أضفى عليها من إبداع ريشته وحرارة عاطفته ما جعلها لوحة مكتملة الأبعاد والسمات غنية بالفن الجميل ، والشعور الصادق معاً .

فلنتأمل نحن - بذوق أبناء القرن العشرين - هذه الباقية من قصائد الحب ، ولننظر كيف كان الشاعر العربي يرى محبوبته وكيف كانت صورتها في نفسه ، شكلاً وملامح ووجداناً ، وإلى أي حد يلتقي الكثيرون من الشعراء في رسم لوحة بعينها هي صورة هذه المحبوبة من المخارج ، تمثال جمال ، بمقاييس خاصة ، من خلال ذوق صحراوي معين ، خلع ظله على عصور شعرية متتابعة .

ثم لنأمل كيف استطاع الشعراء العذريون أن يكسبوا تجربة التعبير عن الحب أعماقاً جديدة وملامح وسمات لم تكن لها ، وكيف أصبحت نظرهم إلى المرأة المحبوبة نظرة إلى كائن إنساني ، يمجج بالمشاعر

والعواطف والأحاسيس ، وكيف ترك لنا هؤلاء العذريون في قصائدهم خلاصة لوعتهم وحرمانهم وتعقُّفهم وعشقهم السامي المجرد ، هذا العشق الذي رفدته تقاليد البادية العربية ثم غدَّته قيم الإسلام ومثله العليا ، فالتقت فيه قيم الفروسية والنبل والنخوة بقيم التعفف والتسامي والتطهر ، والذي أصبحت آثاره الشعرية - فيما بعد - ذخيرة فنية واجتماعية وحضارية نادرة المثال ، موفورة العطاء .

ثم لنمض مع قصيدة الحب العربية نفاذاً في التاريخ ، وعبوراً إلى أقطار وبلدان عربية جديدة ، وتجسيداً لحلم العاشق العربي ، في بغداد والقيروان والأندلس وتونس والقاهرة ، عبر عصور شتى ، وتراكمات حضارية ونفسية شتى ، فهي مرصد صادق التمييز والرصد لحقيقة هذه المسيرة التي قطعها الإنسان العربي في رحلة الزمان والمكان ، منطلقاً من إसार الماضي والمتوارث انعطافاً إلى آفاق الجدة والمعاصرة .

★ ★ ★

ولسنا نزعم أن هذه القصائد ، هي وحدها أجمل القصائد وأروعها وأكثرها تمثيلاً لحقيقة شعر الحب في ديوان الشعر العربي الكبير ، إنه مجرد اختيار خاص ، ساعد عليه ميل وهوى ، كثيراً ما تجاذبني إلى بعض القصائد المختارة ، فعشت فيها طويلاً ، وتأملتُها كثيراً ، فلما سنحت الفرصة لوضعها داخل هذا الإطار كانت أسبق من غيرها إلى ذاكرتي واهتمامي ، فعنيت بها قبل سواها . .

ومن المؤكد أن في شعرنا العربي عشرات بل مئات من قصائد الحب الجميلة ، لم تزل قابضة في مكانها بين الصفحات المطوية ، التي تراكم

عليها الإهمال والنسيان ، وأكاد أحس بها تتململ في رقدها الطويلة ،
لعل يداً تمتد إليها ، تنفض عنها الجحود والتنكر ، وتعيدها إلى مكانها
من دائرة اهتمامنا وتذوقنا . . وفي هذا فليتنافس المتنافسون . ولا شك
أن قارئنا العربي هو الرايح في النهاية عندما يجد بين يديه عشرات
المختارات والمصنّفات والدواوين التي تعيد ماء الحياة إلى هذه الكنوز
الدفينة ، واللوحات الفنية الإنسانية النادرة .

وأتركك أيها القارئ ، مع هذه القصائد العشرين ، التي تشكل في
مجموعها وثيقة شعرية وعاطفية فريدة ، تعطي لحناً أساسياً ممتداً ،
متعدد الإيقاعات والأنغام ، متنوع المقامات والضروب ، لتعبير
الشاعر العربي عن تجربة الحب .
وما أروع من تعبير !

فاروق شقير

فتاة الخذر

للمُنْخَلِيشُكْرِي

غاية ' ما تقوله لنا عنه كتب الأدب والثرث إنه شاعر جاهلي ، حفظ لنا الرواة قصيدة له ، لاهية " ، ماجنة ، وهو إلى جانب هذا شاعر متظرف مؤثر للسهولة في القول .

فإذا ما أردنا الاستزادة ، ورجعنا إلى أمهات كتب التراث وجدناها تقول عن هذا الشاعر : اتهمه النعمان بن المنذر بامرأته « المتجردة » ، وكانت ذا جمال فاتك ، فأغرقه أو دفنه حياً ، أو أخفاه ، ويُضرب به المثل لمن هلك ولم يعرف له خبر .. مات كما يروى سنة ستائة وثلاث ميلادية .

لنحاول إذن أن نسلك سبيلاً آخر يقربنا إلى هذا الشاعر الجاهلي الذي استطاع أن يعيش في ذاكرة الشعر العربي بقصيدة واحدة ، ليست من معلقات العرب ، ولا مُذهَّباتهم ، ولا هي من حماسهم ومفاخرهم ، ولا هي في تسجيل مآثرهم ومفاخرهم - إنها شيء آخر غير هذا كله .. وليكن هذا السبيل هو قصيدته

نفسها ، نستقرئها حقيقة هذا الشاعر ، وصورة نفسه ، ونطل
منها على وجدانه وأشواقه ومطامحه ..

شيء ما يلفت النظر في قصيدة المنخل بن الحارث البشكري
- وهذا هو اسمه الكامل - ذلك هو ما فيها من ظرف ورقة
وفكاهة ، فهي تنطلق بشخصية ذلك العربي القديم ، يوماء
يوم وغى وطعان ويوم متعة وهو وانطلاق ، اليوم خمر وغداً
أمر - كما يقول امرؤ القيس - هذان الوجهان لعملة الحياة
يمثلان معاً رحلة الوجود بالنسبة لهذا العربي القديم ، حتفه في
شجاعته وفروسيته ، ومتعته في نشوته ومجونه بلا حدود .

لكن هذا الظرف وهذه الفكاهة ، تبلورهما القصيدة على
نحو غير مألوف في الشعر العربي القديم . إن الشاعر الفاتك
الجزور ، يقتحم الحذر على فتاته في يوم لهوه ومتعته ، وهو
يختار للهوه ومتعته يوماً مطيراً ، لا يصلح لصيد أو قتال أو
زيارة ، وإنما هو يوم مؤانسة وفراغ بال ، وهو يبادلها حواراً
يشف عن رغبته الجامحة ونزوته العارمة ، فهي تلمس ما يحسمه
من حرور ، أي من حرارة واشتعال ، دليل فحولته
ورجولته ، وتسعد فتاته بهذا الاقتحام وتطرب له وتهش ،
والشاعر يخشى أن يتبادر الى ذهن أن متعته بفتاته هذه
متعة عابرة ، فيعطي لعاطفتها وعلاقتها المشتركة عمقاً في الزمان
حين يؤكد بروح مرحة أنه يحبها وتحبه وأن بعيره أيضاً
يحب ناقتها، توكيداً لظول أمد الحبة وطول الإلفة بين العاشقين .

ثم يمعن شاعرنا الفاتك الجسور - والذي سنجده له أشباهاً
في شعرنا العربي بعد ذلك - كوضاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة
ومسلم بن الوليد (صريع الفواني) وغيرهم - يمعن في نظرفه
أكثر وأكثر ، مصوراً حاله وقد تملكته نشوة الشراب ،
وسرت فيه حميماً الخمر فتخيل نفسه الملك النعمان رب
« الخورنق » وصاحب السرير - أي العرش - بلغة ذلك
الزمان ، فإذا صحا ، وعاد إليه صوابه وجد نفسه كما كان
ربّ الشوينة والبعير ، لا يملك إلا ما يملكه العربي البسيط
شياه وبغير.. والمقابلة هنا بين الحالين : حال نشوته وتصوراته
وحال صحوه وعودته الى الواقع مقابلة طريفة ، صاغها الشاعر
صيغة عذبة ، لا تكلف فيها ولا صنعة ولا تزويق ..

يبقى بعد ذلك أن نشير إلى لغة هذا الشاعر الفارس
الفاتك ، وتراوحها بين الجزالة والجيشان والوقع الأسر في
مستهل قصيدته وهو يتحدث عن شجاعته وفروسيته ومشاركته
للفرسان والأقران ، وبين نعومتها وسهولتها وانسيابها عندما
انتقل الى الحديث عن لهوه ومجونه وشرابه وتخيلاته ، وكأنه
يعطي لكل وجه من وجهي حياته لفته الشعرية الموائمة في
التعبير ، وإيقاعه الموسيقي المواكب في النفس والوجدان .

ولقد تركت هذه القصيدة - على بساطتها وقصرها وسهولتها
المتنعة - آثاراً عميقة في أشعار كثيرين حاولوا استلham الروح
المفعم بالحياة لدى المنخل ، وقدرته الغذة على التصوير الموحى ،

بأبسط الألوان والظلال ، حتى إننا نجد شاعراً حديثاً هو علي
الجارم يقول في إحدى قصائده مخاطباً « بغداد » وكان وقتها
يمثل جمع اللغة العربية في أحد مهرجانات العلم والأدب :

حتى يكاد يحبُّ نخلك نخلُ أهلي في رشيدٍ

وهو هنا ينظر إلى بيت النخل :

وأحبُّها وتحبُّني ويحبُّها بعيري

وقبل الجارم بعصور بعيدة ، موعلة في القدم ، نجد الصورة
الرئيسية أو المشهد الرئيسي الذي تصوّره قصيدة النخل
- مشهد اقتحام الحدر على المحبوبة - متكرراً في شعر
« وضاح اليمن » الذي عاش بعد وفاة النخل بحوالي مائة عام :
وهو يقول :

قلت : ألا لا تلجن دارنا	إنَّ أبانا رجل غائرُ
قلت : فلإني طالب غرّة	منه وسيفي صارم بائر
قلت : فإن القصر من دوننا	قلت : فلإني فوقه ظاهر
قلت : فإن البحر من دوننا	قلت : فلإني سابح ماهر
قلت : فحوالي إخوة سبعة	قلت : فلإني غالب قاهر
قلت : فإنَّ الله من فوقنا	قلت : فربِّي راحم غافر
قلت : لقد أعيئتنا حُبّة	فأت إذا ما هجع السامرُ
واسقط علينا كسقوط الندى	ليلة لا ناه ولا زاجر !

كما نجد المشهد نفسه متكرراً في شعر عمر بن أبي ربيعة ،
وهو يصف اقتحامه خباء محبوبته « نَعْم » وقد أخذ يترقب
مغيب القمر ورواح الرعيان ونوم السمار :

فلما فقدتُ الصوت منهم وأطفئت
مصابيحُ شُبَّتْ بالعشاءِ وأنور
وغاب قنير ، كنت أرجو غيوبه
وروح رعيانٍ ونوم سمر
وخَفُضَ عني الصوتُ ، أقبلت مشية الـ
حباب ، وشخصي خشية القوم أزور^(١)
فحييتُ إذ فاجأتها ، فتولت
وكادت بمخفوض التحية . تجهرُ

وسوف يطالع القارئ النص الكامل لقصيدة عمر بن أبي
ربيعة بين صفحات هذا الكتاب ..

أما الآن فإلى قصيدة المنخل البشكري :

(١) ويرى البيت أيضاً : وركني خشية القوم أزور .

فتاة الخنزر

شجاعة وكرم :

إن كنت عاذلي فسيري
نحو العراق ، ولا تحوري ^(١)
لا تسألني عن جل ما
لي ، وانظري كرمي وخيري ^(٢)
وفوارس كأوار حر
النار أحلاس الذكور ^(٣)
شدوا دوابر بيضهم
في كل مُحكة القتير ^(٤)
واستلأموا ، وتلبسوا
إن التلبس للمغير ^(٥)

-
- (١) عاذلي : لاثني ومعانتي . لا تحوري : لا ترجعي .
(٢) جل مالي : كثرة مالي ومعظمه .
(٣) الأوار : شدة الترمج والاشتغال . أحلاس الذكور : فرسان الخيل اللازمون لظهورها .
(٤) الدوابر : الأواخر . البيض : جمع بيضة الحديد وهي تلبس في الرأس . القتير : مسامير الدروع .
(٥) استلأموا : لبسوا اللامات وهي الدروع . تلبسوا : أي تحزموا ، وهي علامة التأهب للإغارة على العدو .

وعلى الجيادِ المضرا
تِ فوارسٌ مثل الصقورِ^(١)
يخرجن من حلل الغبا
رٍ يحفن بالنعم الكثيرِ^(٢)
أقررتُ عيني من أول
مك والفوائح بالعيرِ^(٣)
وإذا الرياح تناوحت
يحوانب البيت الكبيرِ^(٤)
ألفيتني هشّ اليدينِ
نِ ، بمرى قدحي أو شجيري^(٥)

(١) المضرات : التي ضمرت ، أي هزات من كثرة الرياضة وسرعة الحركة .

(٢) يحفن : يسرعن .

(٣) من أولئك : أي من الفوارس . الفوائح بالعير : النساء الذكيات الرائعة .

(٤) تناوحت : هت من كل ناحية . الكبير : المشدود الى الأرض بالحبال .

(٥) ألفيتني : وجدتني . هشّ اليدين : خفيف اليدين . بمرى قدحي : بإجالتة ودورانه . الشجير : الغريب (إذا حل الجذب وجدتني خفيف اليدين كرمًا وجوداً أوزع أقداحي) .

وأحبها وتحبني :

ولقد دخلتُ على الفتا
ةِ الحِذرِ في اليومِ المطيرِ^(١)
الكاعبِ الحسناءِ ترفُ
لُ في الدمقسِ وفي الحريرِ^(٢)
فدفعتمُ فِتدافعت
مشيَ القطاةِ إلى الغديرِ^(٣)
ولثمتُ فتنفتُ
كتنفتُ الطيبيَ الغريرِ^(٤)

ويروى البيت أيضاً :

(وعطفتُ فتمطفت
كتمطف الطيبي الغرير)
فدنت وقالت ، يا منخِثلُ
ما يحسمك من حرورِ^(٥)

-
- (١) اليوم المطير : اختاره الشاعر لأنه يوم المؤانسة وفراغ البال لا صيد فيه ولا غارة ولا زيارة .
(٢) الكاعب : التي دأ ثديها في النهود . الدمقس : الحرير الأبيض .
(٣) القطاة : نوع من الطير يشبه الحمام ، وقيل : هو الحمام .
(٤) الغرير : ولد الطيبي وهو صغير .
(٥) الحرور : شدة الحرارة والتوهج .

ما شفّ جسمي غيرُ جد
 مكِ ، فاهدئي عني وسيري ^(١)
 وأحبّهم ————— وتحبني
 ويحبّ ناقتها بعيري

خيالات النشوة :

يا ربّ يومٍ للمنخ
 لـ ، قد لها فيه قصير
 ولقد شربتُ الخمر بالـ
 خيل الإناثِ وبالذكورِ
 ولقد شربتُ الخمر بالـ
 مبدِ الصحيحِ وبالأسيرِ
 ولقد شربتُ من المدا -
 مةٍ بالصغيرِ وبالكبيرِ ^(٢)

(١) ما شفّ جسمي : ما مزله وأضعفه . اهدئي عني : الزمي
 السكون عني .

(٢) بالصغير وبالكبير : بصغير ماله وكبيره . أو بالدوم وبالدينار .
 أو بالقدح الصغير والقدح الكبير .

- فاذا انتشيتُ فإني
 ربُّ الخورنقِ والسريِرِ^(١)
- وإذا صحتُ فإني
 ربُّ الشوينةِ والبعيرِ^(٢)
- يا هندُ مَنْ لَتَيْمٍ
 يا هندُ .. للعاني الأسيرِ^(٣)

-
- (١) الخورنق : قصر النعمان قرب النجف في العراق . السريِر : يقصد به العرش ، ويروي : و « السدير » : وهو قصر آخر في الحيرة بالقرب من الخورنق اتخذهُ النعمان الأكبر لبعض ملوك المعجم .
- (٢) اذا صحت : اذا ذهبت نشوة السكر . رب الشوينة والبعير : عربي لا يملك شيئاً إلا الشياه والبعير .
- (٣) هند : بنت النعمان بن المنذر بن ماء السماء حاكم الحيرة . العاني : المقيّد .

نغم

لعمر بن أبي ربيعة

وهذا فتي قريش المدلل ، وأول شاعر ينبغ من بينها
ويطير ذكره في القبائل ، وإذا بلغة الضاد على شفتيه تكتسي
رداءها القرشي ، وطابها العربي الأصيل ، في رقّة تفتن
القلوب وتستهيئ الأبواب ، وديباجة جزلة ولكنها ناعمة ،
متينة السبك غير أنها تفيض سلاسة وليونة ..

عند عمر بن أبي ربيعة ، ينعطف الشعر العربي ، ويتخذ
سمتاً خاصاً ومذاقاً خاصاً . هنا ، وللمرة الأولى في تاريخ هذا
الشعر ، يفاجئنا شاعر مطبوع ، يدور شعره كله حول موضوع
واحد هو الغزل ، شاعر لا يمدح ولا يهجو شأن غيره من
الشعراء ، إنه فقط يحب ، ويعلم عن هذا الحب في شعره ،
ديوان شعره كله ديوان حب ، والقصيدة الواحدة من قصائده
قصيدة حب كاملة . كان الغزل في شعر الشعراء - قبل عمر -
شيئاً يتخفى أو يبين داخل غيره من أغراض القصيد ، وهو

في الأكثر الأعم مدخلٌ يُفضي إلى الغرض الرئيسي من القصيدة ، أو هو حُسْنُ استهلالٍ يصل من خلاله الشاعر إلى موضوعه الجوهري مدحاً أو فخرأ أو هجاء أو تأملاً .

وشاعرنا - الذي ولد ومات بالحجاز (من ٦٤٤ إلى ٧١٢ ميلادية) وعاش بمكة ، وكان يتردد على المدينة واليمن والشام والعراق - قد أتيح له من شبابه وجماله وقتوته وشاعريته وعراقه أصله وراثته فضلاً عن كونه وحيد أمه ، ما يشر أمامه سبيل العيش اللاهي العابت ، وهياً له أفانين المتعة واللهو ، ينتقل من غاية إلى غاية ، ومن التشبيب بحسنة إلى الولع بأخرى ، ومن تلبع خطا قرشية إلى التغزل بأخرى غير قرشية ، وما أكثر ما كانت مواسم الحج ، بالنسبة له ، مواسم للحب واللذة والدوران وراء اللاتي قدمن للحج ، من بقاع الوطن للإسلامي، يتعرض لهن ، ويشتب بهن ، وينسج حولهن الأقاصيص في شعره ، ويحاورهن ، ويترقب خروجهن للطواف بحرمات ، فيقمن من فؤاده موقماً يملك عليه لبتة ، وما يلبث شعره أن يسير ويروى ويتناقله الركبان والسفّار . وبعض هؤلاء اللاتي قدمن للحج قد بلغن قصص عمر وأفاعيله وأشعاره ، ووددن لو كان لهن حظ من شهرة ينلنها بفضل أبيات قليلة منه . إن التفات عمر إليهن - دون غيرهن - حظوة وتكريم ، وذكرهن في شعره مجد وأيّ مجد ، يتهن به على الصواحب والأتراب .

وفى هذا شأنه ، لا يمكن أن يعلق فؤاده بواحدة من
النساء يصدق لها الحب والعهد ، كلاً ، وإنما هو فؤاد قلق ،
طائر ، متنقل ، سريع الزهد والعزوف ، دائم البحث والتنقيب
والتجول ، لذلك فلن يفاجئنا أن نطالع في شعره أسماء شق
لمحوبات توقف عندهن بمض الوقت ثم واصل تطوافه وتجواله .
ليس هناك إذن اسم واحد ، لمحوبة واحدة ، يكن لها كل
الحب وكل الاخلاص ، وليست هناك معالم واضحة لهذا الحشد
من الحسان ، إنه دائماً يصفهن من الخارج ، القوام والوجه
والعينين والفم والمشية والشعر ولا يفوته أيضاً أن يصف اللون
والصوت ، هو دائماً وصف من الخارج قد تتشابه فيه الموصفات
والمقاييس ، لكننا لن نجد من خلاله شخصاً حياً ، لها تفردها
وتوهجها الخاص ، لها إنسانيتها المتميزة . وعمر في هذا شأنه
شأن غيره من الشعراء العرب القدماء ، وإن كان ينفرد من
بينهم بما أوتيته من نفاذ إلى خوالج نفس المرأة ، وقدرة على
تصوير عواطفها وأهوائها ونزواتها ، وتقلبها ، وإحاطة
بحركاتها وإشاراتنا ولفقاتها وأساليب حديثها وطرق تعبيرها .
مما يثمّ عنه شعره الذي وصل إلينا . هذا الشعر الذي تأثر
بازدهار الغناء في عصره ، فجاء على صورة مقطوعات أكثر منه
على صورة قصائد ، وفي أوزان خفيفة أو مجزوءة ، وألفاظ
سهلة واضحة حلوة الجرس والرنين .

وفي شعر عمر بن أبي ربيعة ، تطالعنا ، ولأول مرة في

شعرنا العربي ، القدرة على القصّ وكتابة شعر الغزل القصصي ،
فالكثير من قصائده تجارب عاطفية في إطار من القصة ، يتخللها
غالباً حوار بين شخصها وأبطالها ، وهو مستوى من التعبير
الشعري القصصي تفوّق به عمر كثيراً على أستاذه الأول في
هذا الفن - امرئ القيس - كما تفوق بقدرته الخارقة على فهم
نفسية المرأة وتمثّل حالاتها المختلفة ، والقدرة على خلق الحوار
الطبيعي النابض بالحياة والجمال والطرافة .

هذا الشاعر المترف الملول ، الكثير التقلب والتنقل من
واحدة إلى أخرى ، هو أيضاً شاعرٌ معجب بنفسه كل
الإعجاب ، شاعر نرجسيّ يتلى شعره بذكر تهافت الحسان
عليه ، وإعجابهن به وبشعره ، ومن هنا نجد في قصائده لونا
من التشبيب بنفسه ، والحديث عن طلب النساء له وسعين
في إثره :

ثم اسبطرتْ تشتد في أثري

تسأل أهل الطواف عن عمرِـ

إنه المطلوب وليس الطالب ، وهو المطارّد وليس المطارد ،
وهو من تتعرض له النسوة في الطريق بالغمز والإشارة ، وهو
من يصفنه بالقمر ، ويهينن له سبل اللقاء في الخلوات ، ويدبرن
بينهن وبينه رُسلًا يحملن إليه رسائل الوجد والشوق والهيام :

هل من رسولٍ يَكِي حوائجنا

بحاجة تُستهى إلى عمرِـ ؟

وهنّ في قصائده يتحدثن عنه حديث من تيشمن الحب
وبرّح بن الهيام ، وما أسعدهن به حين يطلع عليهن ممتطياً
جواده الأغرّ وهن منغمسات في الحديث عنه والتلذذ بذكره :

قلن : يسترضينها : 'منيتُنّا
لو أتانا اليومَ في سرّ 'عمر' !
بينما يذكرّني أبصرّني
دون قيد الميلِ ، يعدو بي الأغرّ

قالت الكبرى : أتعرفن الفق ؟
قالت الوسطى : نعم ، هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيشمتُها :
قد عرفناه ، وهل يخفى القمر !
فأيّ زهو بالنفس وأي افتتان بالذات ؟

* * *

والقصيدة التي نطالها الآن من شعر عمر بن أبي ربيعة
تحمل كل خصائص شعره وسمات شاعريته ، فضلاً عن أنها
أطول قصائده 'نفساً' وأشهرها بين الرواة ودارسي الأدب ،
ومتذوق شعرنا العربي .

القصيدة تدور حول واحدة من معبوباته هي « نعم » ،
ويستهلها بالحديث عن شمل غير مكتمل وحبل غير موصول ،

وحنين إلى صاحبتة هذه التي حالت الحوائل بينه وبينها ، وفي مقدمة هذه الحوائل أقاربها الذين يقطعون الطريق عليه ويتنمرون له . ثم يصل بنا إلى جوهر القصيدة حين يصف - في مهارة واقتدار - ليلة « ذي دُوران » حين أخذ يترقب نوم المحيطين بنُعم ، حتى إذا هجموا وأطفئت المصابيح ونام السَّمار فاجأها بالزيارة ، ثم هو يصف وقع المفاجأة عليها ، وما دار بينهما من حوار وهي متوجسة خائفة من الفضيحة لو أحس بها القوم - وينتهي الحوار بقولها لعمر :

فأنت - أبا الخطاب - غير مدافع
عليّ أميرٌ ، ما مكثت ، مؤمّرٌ

وبييت معها عمر ، ويلدّ له الوصال ، ويا له من ملهى وجلس لم يكدره مكدر ، وتقضي الساعات وهما في نشوة اللقاء ، حتى يروعها صوت المنادي يؤذّن للرحيل وقد أوشك الليل على الانقضاء . وهنا تبلغ القصة قمتها وتستحكم عقدتها ، لقد استيقظ القوم وتنبهوا ، فكيف لعمر أن يغادر الحي دون أن يحسوا به ، وتذبّر له صاحبتة المخرج ، تقضي لأختها بالأمر لعلها تعينان عليه ، وتعطيه الصغرى رداءها فيرتديه ، ويمشي بينهما حتى يغادر ، فلا السر يفشو ولا الفضيحة تقع ، ولا ينسى وهو يختتم قصيدته بعد أن نجا بتدبير الأختين ، لا ينسى أن يغبط أهل صاحبتة برائحتها الطيبة ومذاق فمها المسكر ..

وكأنه يريد أن يقول إن أثر هذه الرائحة المعطرة وهذه الأعطاف الناعمة ما يزال عالماً بذاكرته لم يفارقه بعد .

يبقى بعد هذا أن نشير إلى الصنعة الشعرية المتقنة التي تنبض بها هذه اللوحة الشعرية الغائنة من آثار عمر بن أبي ربيعة وإلى القدرة الغضة على التصوير والتجسيد وتوزيع الألوان والظلال ، خاصة وهو يرسم المجال النفسي لشخوصه وأبطاله ، وإلى الإيقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس هدوءاً واندفاعاً ، قلماً واطمئناناً ، وإلى التفنن في تصوير الإطار الطبيعي للمشهد وقد غاب القمير وهجع السمّار وواتت الفرصة ..

وقصيدة « نعم » بعد هذا كله شاهد صدق على مغامرة شاعر فاتك ، معجب بنفسه ، مفتون بذاته ، وبحظوته لدى النساء ، واقتداره على الوصول إليهن ، شاعر استطاع أن يخط في مسيرة الشعر العربي عامة ، وشعر الغزل والحب خاصة ، أثراً فريداً غير متكرر ، تنتمي جذوره البعيدة إلى امرئ القيس وتنتهي فروعه القريبة إلى نزار قباني .

يقول عمر بن أبي ربيعة :

« نَعْم »

استهلال وشوق :

أمن آل نَعْم. أُنْتَ غَادٍ فَبِكْرُ
 غَدَاةَ غَدِي ، أُم رَائِحُ فَمُهْجَرُ (١)
 الحاجة نفسٍ لم تقل في جوابها
 فتبلغ عذراً والمقالة تُعَذِرُ
 تهم إلى نَعْم. ، فلا الشمل جامعُ
 ولا الحبلى موصولُ ، ولا القلب مقصر
 ولا قرب نَعْم. إن دنت لك نافع
 ولا نأيا يسلي ، ولا أنت تصبرُ
 وأخرى أتت من دون نَعْم. ، ومثلها
 نهى ذو النهى لو ترعوي أو تفكر (٢)
 إذا زرت نَعْمًا ، لم يزل ذو قرابة
 لها ، حثما لا قيته ، يتنمرُ .

(١) غادٍ فَبِكْرُ : أي سائر في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس .
 الرائح : السائر في الرواح وهو وقت العشي . المهجر : السائر في الهجرة
 وهي الحر الشديد .

(٢) النهى : المعقل . ترعوي : ترجع عن الضلال .

عزیز علیہ أن النّم ببیتہا
 یسرّ لی الشعناء، والبغض 'مظہر' (۱)
 الکنی إلیہا بالسلام، فإنہ
 یشہر' إلمامی بہا ویُنکّر' (۲)
 بآیة ما قالت غداةَ لقینہا
 «مدفع أکنان» : أہذا المشہر' ؟ (۳)
 أشارت بمیدراہا، وقالت لأختہا :
 أہذا المغیری' الذی کان یُذکر' ؟ (۴)
 أہذا الذی أطريتِ نعمتا، فلم أکن
 وعیشیکِ، أنسأہ إلی یوم أقبر' (۵)
 فقالت : نعم، لا شک غیر لونہ
 'سری اللیل یحیی نصہ، والتہجر' (۶)

-
- (۱) الشعناء : الکراہیة والبغضاء .
 (۲) الکنی : أي أحل رسالتي . یشہر : یداع .
 (۳) « مدفع أکنان » : اسم موضع .
 (۴) المدوی : حدیة یحک بہا الرأس . المغیری : أي عمر ، نسبة
 إلی المغیرة جد أبیہ .
 (۵) أطريت نعمتا : أحسنت وصفا .
 (۶) یحیی نصہ : یرورہ وأنفضاءہ . التہجر : السیر فی المہجرة
 وہی الحر الشدید .

لئن كان إياه ، لقد حال بعدنا
عن العهد ، والإنسان قد يتغير^(١)

صورة وصفية للشاعر:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت
فيضحي ، وأما بالعشي فيخصر^(٢)
أخا سفر جواب أرض ، تقادفت
به فلوات^(٣) ، فهو أشعث أغبر^(٤)
قليلاً على ظهر المطية ظلّه
سوى ما نفى عنه الرداء المخبّر^(٤)

وصورة لحال الحبيبة :

وأعجبها من عيشها ظلّ غرفة
وريتان ملتفتا الحدايق أخضر

-
- (١) حال : تغير .
(٢) عارضت : أي قابلت وواجهت . يضحى : يتعرض للشمس .
يخصر : يشتد به البرد .
(٣) الفلوات : جمع فلاة وهي الصحراء .
(٤) الرداء المخبّر ، المزين والمطرز .

ووالِ كفاها كل شيءٍ مُبها
فليست لشيءٍ آخرَ الليلِ تسهر^(١)

وصف المغامرة الليلية :

وليلة « ذي دوران » جشمتني السرى
وقد يحشم الهولَ الحبُّ المفرَّ^(٢)
فبتُّ رقيباً للرفاق على شفا
أحاذر منهم من يطوف وأنظر^(٣)
إليهم ، متى يستمكن النوم منهمو
ولي مجلسٌ لولا اللبانة أوعر^(٤)
وباتت قلوصي بالعراءِ ورَحَلُها
لطارقٍ ليلٍ ، أو لمن جاء ، «مُور»^(٥)
وبتُّ أناجي النفس : أين خباؤها ؟
وكيف لما آتني من الأمر مصدرُ ؟

(١) الوالي : الزوج أو القيم . كفاها كل شيء : أي كفل لها كل احتياجاتها ورغائبها .

(٢) « ذي دوران » : اسم موضع . جشمتني : أي كلفتني . المفرَّ : الذي يمرض نفسه للهلاك .

(٣) على شفا : على حذر وتربص .

(٤) لولا اللبانة : لولا الحاجة والحوى .

(٥) قلوصي : ناقي . مور : أي ظاهر واضح .

فدلّ عليها القلب ربّنا عرفتها
 لها ، وهوى النفس الذي كاد يظهر^(١)
 فلما فقدت الصوت منهم ، وأطفأت
 مصابيح^٢ 'سبّت في العشاء وأنور'
 وغاب 'قير' كذت أرجو غيوبه
 وروح رعيان^٣ ونوم 'سمر'
 ونفضت^٤ غني التوم ، أقبلت مشية الـ
 حجاب^٥ ورُكني خشية القوم أزور^(٢)
 فحييت^٦ إذ فاجأتها ، فتولّيت
 وكادت بخفوض التحية تجهر^(٣)
 وقالت وعضّت بالبنان : فضحتني !
 وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر^٧
 أريتكَ ، إذ هُنّا عليك ، ألم تخف ؟
 وقيت^٨ ، وحولي من عدوك حُضُر^(٤)

(١) الريتا : الرائعة الذكية .

(٢) مشية الحجاب : أي كما تمشي الحية ، وركني أزور : أي وجسمي
 مائل منعطف خشية أن يراني أحد .

(٣) تولّيت : اشتد بها الوجد .

(٤) أريتكَ : أي قل لي وأخبرني ، أصلها أرايتكَ . 'حضّر' : أي
 حاضرون .

فواهد ما أدري أتعجيل حاجة
سرت بك ، أم قد نام من كنت تحذر ؟

فقلت لها : بل قادني الشوق والهوى
إليك ، وما عين من الناس تنظر

فقات وقد لانت وأفرخ روعها :
كلاك بحفظ ربك المتكبر^(١)

فأنت ، أبا الخطاب ، غير مدافع
علي أمير ، ما مكثت ، مؤتمر^(٢)

فبت قرير العين ، أعطيت حاجتي
أقبل فاما في الخلاء فأكثر

فيالك من ليل تقاصر طوك
وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

ويا لك من ملى هناك ، ومجلس
لنا ، لم يكدره علينا مكدر

(١) أفرخ روعها : هدأت نفسها . كلاك : وعاك وحفظك .

(٢) أبو الخطاب : كنية عمر بن أبي ربيعة . غير مدافع : غير منازع .
مؤمر : أي لك الأمر والسيادة علي .

يُجْ ذكي المسك منها مفلج^(١)
 رقيق الحواشي ذو غروبٍ مؤثر^(٢)
 تراه إذا تفتّر عنه ، كأنه
 حصّى برّديّ أو أقحوان^(٣) مُنور^(٤)
 وترنو بعينها إليّ ، كما رنا
 إلى ربربٍ وسطَ الخيلة جؤذر^(٥)
 فلما تقضى الليلُ إلا أقلّه
 وكادت قوالي نجمه تتغور^(٦)
 أشارت بأنّ الحيّ قد حان منهمو
 محبوب^(٧) ، ولكن موعدك لك «عزور»^(٨)
 فما راعني إلا منادٍ : « ترحّلوا »
 وقد لاح مفتوق^(٩) من الصبح أشقر^(١٠)

-
- (١) يُجْ ذكي المسك ، أي يقدف بالرائحة الطيبة . مفلج : أي نغر متباعد الأسنان ، وكانت العرب تعد هذا من جمال المرأة . ذو غروب : أي ممتلئ بالرحيق والرضاب . مؤثر : أي أسنانه مخروطة خلقة أو صنعة .
 (٢) تفتّر عنه : تبتّم .
 (٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش . الجؤذر : ولد البقرة الوحشية كانت العرب تشبه النساء به بجمال عينيه .
 (٤) قوالي نجمه : أي نجومه المتبقية . تتغور : تغيب .
 (٥) عزور : اسم جبل بين مكة والمدينة .
 (٦) مفتوق : أي منشق ، والقصود نور الصباح .

فلما رأت من قد تنبّه منهمو
وأيقاظهم ، قالت : أشرُ كيف تأمرُ !
فقلت : أباديهم ، فلماذا أفوتهم
ولماذا ينال السيف ثأراً فيثأرُ (١)

تدبير الخلاص :

فقلت : أتخفيّ لما قال كاشحُ
علينا ، وتصديقاً لما كان 'يؤثرُ' ؟ (٢)
فإن كان ما لا بدّ منه ، فغيره
من الأمرِ أدنى للخفاء وأسرّ
أقصّ على أخوتي بدءَ حديثنا
وما ليّ من أن نعلما متأخراً
لعلّها أن تطلبنا لك مخرجاً
وأن ترحبنا صدرأ بما كنتُ أحصر (٣)
فقامت كئيلاً ليس في وجهها دمٌ
من الحزن 'تذري عبّرة' تتحدّرُ (٤)

(١) أباديهم : أبادر وأتصدى لهم .

(٢) الكاشح : العدو المبغض . يؤثر : يروى ويقال .

(٣) أحصر : أضيق به .

(٤) تذري عبّرة : تسكب دمعاً .

فقامت إليها 'حرثان' عليها
 كِسَاءُ ان من خَزٍّ : دِمَقْسٌ وأخضرُ
 فقالت لأختينها : « أعينا على فتى
 أتى زائراً ، والأمرُ للأمرِ يقدر »
 فأقبلتا ، فارتاعتا ، ثم قالتا :
 أقتلي عليكِ اللومَ ، فالخطبُ أيسرُ
 فقالت لها الصغرى : سأعطيه مطرفي
 ودرعي وهذا البرْدُ إن كان يحذرُ^(١)
 يقوم فيبشي بيننا 'متنكراً'
 فلا سرُّنا يفسو ولا هو يظهر
 فكانِ بجنتي دونَ من كنت أتقي
 ثلاثِ شخوص : كاعبانٍ ومُعصر^(٢)
 فلما أجزنا ساحة الحبي قلن لي :
 ألم تتقِ الأعداءَ والليلُ مقعرٌ ؟

(١) المطرف : رداء من خَزٍّ . الدرع : قيص المرأة . البرد : ثوب مخطط .

(٢) بجني : ترسي . الكاعبان : مثني الكاعب ، وهي الفتاة في أول البلوغ . المعصر : المرأة الناضجة .

وقلن : أهذا دأبك الدهر سادراً
أما تستحي أم ترعوي أم تفكر؟^(١)
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر^(٢)

التفاته وتذكر :

فآخر عهد لي بها حين أعرضت
ولاح لها خد نقي وبحجر
سوى أنني قد قلت يا نعم ، قولة
لها ، والعناق الأرحبيات تزجر^(٣)
هنيئاً لأهل العامرية نشرها الـ
لذيذ وريتها التي أتذكر^(٤)

-
- (١) دأبك : عادتك . سادراً : منصرفاً إلى الغواية غير مبال .
(٢) امنح طرف عينيك غيرنا : أي انظر إلى سوانا وغيرنا .
(٣) العناق الأرحبيات : النياق الكريمة . تزجر : تساق وتندفع .
(٤) اللذر : ريح فم المرأة . الريتا : الرائحة الذكية .

[المؤنسة]

لمجنون ليلي (قيس بن الملوّح)

لا يُذكر الحبُّ في شعرنا العربي القديم إلا ويذكر معه
مجنون ليلي : هذا الاسمُ الأسطورة ، الذي صارَ علماً على نوع
من الحب هو الحب العذري . وصار مثلاً للمشق الصادق الذي
صرع صاحبه ، وكان بذلك موضع أحاديث معاصريه ومن جاء
بعدهم حتى يومنا هذا .

ويتفق المؤرخون جميعاً على أن المجنون عاش في عصر
الدولة الأموية ، واستمرت حياته حتى عام سبعين من الهجرة ،
وأن اسمه الكامل هو قيس بن الملوّح من بني عامر بن صعصعة ،
وأن ليلي التي أحبها وهام بها وقضى بسبب حبها هي ليلي بنت
مهدي بن سعد بن كعب بن ربيعة .. وأن كليهما نشأ في بيت
ذي ثراء وافر وخير كثير ..

— ولكن ما هي — أولاً — حكاية هذا الحب العذري ؟
في رحاب الصحراء العربية وتحت خيامها ، وفي ظلال

كُتبانها ومنعطفات أوديتها ، نَمَا وترعرع حبُّ الفروسية
الأصيل .. ولقد كانت البيئة العربية مهداً لحب الفروسية
منذ الجاهلية ، فالبادية أيقظت في وجدان الشاعر العربي
الحديث عن الحب الذي ينشر على الحياة الرتيبة فيها جواً من
المرح والسرور وهو حبُّ أهل البادية الذي يملأ عليهم فراغ
الحياة من حولهم ويبعث فيهم من نُبل الشعور ما به يعيشون
على ذكرى هذه العاطفة في النفس، ويبكون آثارها في أطلال
ديار الحبيب .

وحياة البادية بما كانت تدفع إليه من شظفٍ وجهد ، وبما
كانت تستلزمه من تعاون قَبَلِي ، ساعدت على تكوين أخلاق
وتقاليد تمكنت من روح العربي وسُرت في نفسه وهي أخلاق
الفروسية وتقاليدها : من البطولة في الحرب ، وحماية الجار ،
والوفاء بالعهد .

فالشاعر العربي منذ الجاهلية فارس من قوم فرسان ،
والفارس يكتمل فيه جانب البأس والشدة في مواطن الهول
يجانب الرقة والدمائة خضوعاً لسلطان العاطفة - ولهذا ،
كان الشاعر العربي لا يبكي في شعره أمام أخطر الأحوال ،
ويتعاشى أن يمر بباله هذا البكاء خوفاً من أن تضيق مكانته في
قومه ، ولكنه يبكي في يُسرٍ وطواعية لإرضاء لعاطفته
واستجابة لها ، بل إنه يظهر أمام حبيبته في صورة الخاضع
الذليل لسلطان حبه ، وإن كان الفارس القوي الذي يحميها
ويحاطر في سبيلها .

ولم يلبث عامل البيئة والقبيلة أن تضافر مع عوامل أخرى كثيرة في خلق نوع جديد من الحب في حياة العربي ، يتجاوز كثيراً حب الفروسية وإن كان يتفق معه في صدق العاطفة ، ألا وهو الحب العذري ، وفيه يمزج صدق العاطفة بصدق العقيدة .

نشأ هذا النوع الجديد من الحب بعد ظهور الإسلام ، واتضحت سماته في عهد الأمويين ، بعد أن تغير الوضع القديم للجزيرة العربية في ذلك العهد ، فانتقلت عاصمة الدولة الجديدة إلى دمشق ، وقوي النشاط السياسي في العراق ، وبعد الحجاز عن المشاركة في شؤون الدولة ، وبخاصة بعد فشل ثورة عبد الله بن الزبير . واتجه شعراء الحجاز اتجاهاً مختلفين : الأول لإغراق في اللهو ، في حياة مرحة غنية ، بما أفاء عليهم الإسلام من مغامرات الفتوح ، وخير من يمثل هذا الاتجاه عمر بن أبي ربيعة وأضرابه ، وأكثرهم من سكان المدن .

أما الاتجاه الثاني فكان إلى التعبير عن الغزل العفّ ، ويغلب على سكان بادية الحجاز ، لتمكّن التقاليد العربية منهم ، وقوة سلطان المحافظة الخلقية بينهم ، والمحافظة تغلب دائماً على سكان القرى والبادي - ويضعف سلطانها في المدن والمواصم . لذلك نما الغزل العذري في أول نشأته في بادية الحجاز ونجد ، وكان بمثابة ردّ فعلٍ للغزل اللامي في المدن ، فوَلَعَ شعراء البادية بتصوير عاطفتهم في ثوب جديد عفّ ، يرضى

عنه الخلق ، ويفرق بين مطالب الجسم والروح معا .

* * *

ها هو ذا قيس بن الملوّح ، في مستقبل شبابه ، الفتي
الغيور ، المعتد بنفسه ، ينشد حباً خالصاً له ، حتى إذا علق
قلبه بليلي ، وأثاه الحب الذي كان يتطلع إليه ، حباً جارفاً
قوي عارم ، يصفه هو بقوله :

نهارى نهارُ الناسِ ، حتى إذا بدا
ليَ الليلُ هزني إليك المضاجعُ
أقضي نهارى بالحديثِ ، وباللُي
ويجمعني والهمُّ بالليلِ جامعُ
لقد ثبتتُ في القلبِ منك محبةٌ

كما ثبتت في الراحتين الأصابعُ (١)

ويقلب قيساً شعوره العنيف بحب ليلي ، فيُعبر عن حبه
لها وهيامه بها في شعرٍ حلوى متدفق ، ولسوء حظه وحظ
ليلي ، أن التقاليد العربية الجاهلية - التي لم يكن قضى عليها
الإسلام - كانت تحرم على من يشبب بفتاة أن يتزوج منها ،
لأن التشبيب والفزل الصريح مظنة صلة بها قبل الزواج ،
ومبعث ريبة في أن الزواج لم يتم بينها إلا ستراً للعار .

(١) من الطريف أن هذه الأبيات نفسها ينسبها الرواة إلى مجنون آخر
بالحب هو قيس لبنى ! ونجدها في قصيدته داخل هذا الكتاب .

وتحرمُ ليلي على قيس وتُجبر على الزواج من غيره ، ولا
يحتمل قيس وقع الكارثة ، فيهم على وجهه ، ويختبل عقله ،
وتدركه المنية وهو على هذه الحال .. شارداً ذاهل اللبّ فيما
يشبه الجنون .

* * *

وقيس في شعره عن ليلي - وما أكثره - مؤمنٌ بأنه
ضحية قدرٍ لا سبيل إلى الإفلات منه ، وأنه في معاناته لهذا
الحب العنيف لا يتطلعُ إلى مثوبة كما أن الحب في إدراكه له
صفة الخلود . فهو باقٍ بعد الموت وإلى يوم الحشر ، ويصاحب
الحب العذري في الدار الآخرة ، ولذا فهو يتمنى الحشر لأنه
السبيل للقاء من يحب .

ومن بين ديوان « مجنون ليلي » تستوقفنا قصيدته المسماة
« المؤنسة » ليس لأنها كما تقول مصادر شعره أشهر قصائده
فحسب ، ولا لأنها أطول قصيدة أنشدها وواظب عليها ولا
لأنها - كما يقولون - كانت أقرب قصائده إلى قلبه ، لا يخلو
بنفسه إلا وأنشدها ، ومن هنا كانت تسميتها بالمؤنسة لكثرة
ما آنست المجنون بتريديده لها وإنشاده أبياتها مجتمعة أو
متفرقة ، ليس لكل هذه الأسباب تتخير قصيدة المؤنسة من
ديوان المجنون ، ولكن لأنها نموذج رفيع للشعر العذري ،
الذي عبّر لدى أعلامه الكبار : جميل بثينة وكثير عزة
ونصيب وقيس بن ذريح - الذي يعرف باسم مجنون لبنى -

وابن الدثينة وأبي صخر الهذلي وعروة بن حزام ، عبّر عن عاطفتهم المشبوبة التي لا تتطلع إلى 'متع حسية' ، فقد كانوا يسمون بها 'سماً' تجلى في اعتزازهم بها والتضحية في سبيل الإبقاء عليها بما يستطيعون بذله من جهد وآلام ومعاناة حرمان بدافع الزهد في المحرمات وتقوى الله . لقد دفعهم المحرمات إلى التسامي ، ولا يتاح مثل هذا التسامي إلا للصفوة التي تؤمن بقيم روحية وخلقية تبلور بها عاطفتها ، فالحب العذري حبٌ عَفٌّ لأنه حب حرّم المتعة الجسدية ، وهو عاطفة صادقة لأنه يدوم ويستمر ويبقى على الرغم من الحرمان .. ثم هو بعد ذلك حب يتسامى فيه صاحبه ، لأنه يحرص على القيم الإنسانية والمثل العليا ، ولا يقف عند مجرد الحسرة والندم على الحرمان ، من متع الحب ووصال الحبيب .

في ضوء هذه السطور نستطيع أن نتأمل قصيدة المؤنسة ، رائعة مجنون ليلى ، باعتبارها نموذجاً صادق التعبير والتصوير لحقيقة هذا الحب العذري ، ولعمق مكابدة العاشق العذري وتساميه بعاطفته المشبوبة وشعوره الصادق ووجدّه المُبرح ، كما نستطيع أن نطالع من خلال أبياتها نسيجاً شعرياً محكماً ، غاية في الرقّة والعذوبة ، تغمره روح بدوية أصيلة تكسبه صدقاً ورسانة ، وبُعداً عن التكلف وخُلُوعاً من الصنعة ، نسيجاً شعرياً يزخر بصدق العاطفة وروعة التصوير وحرارة الوجد والهيّام .. لا يملك قارئه إلا أن يتعاطف معه ويتأثر بما يحمله من لوعةٍ وحنينٍ وشجنٍ وأسى .

استهلال وتذكر :

تذكرت ليلى ، والسنين الخواليها
 وأيام لا تخشى على اللهو ناهيا
 ويوم كظل الرمح ، قصرت ظلّه
 بليلى ، فلهاى ، وما كنت ناسيا
 « بتمدين » لاحت نار ليلى ، وصحبتى
 « بذات الغضى » تزجي المطي النواجيا (١)
 فقال بصير القوم ألهمت كوكبا
 بدا في سواد الليل فردا بانيسا
 فقلت له : بل نار ليلى توقدت
 « بعليا » ، تسامى ضوءها ، فبدا ليا
 فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى
 وليت « الغضى » ماضى الركاب لباليا
 فيا ليل كم من حاجة لي مهمة
 إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا
 خليلى إن لا تبكياني الشمس
 خليلا إذا أنزفت دمي بكى ليا

(١) تمدين وذات الغضى : اسمان لموضمين . المطي النواجي : جمع
 ناجية ، وهي الذوق السريعة تنجر بين ركبتها .

فما أشرف الأيفاع إلا صباية^(١)
ولا أنشد الأشعار إلا تداويا^(٢)
وقد يجمعُ الله الشيتين بعدما
يظنَّان كل الظنَّ أن لا تلاقيا^(٣)

سرّ المأساة :

لحى الله أقواماً يقولون إننا
وجدنا طوالَ الدهر للحبِّ شافيا^(٣)
خليليّ ، لا والله ، لا أملكُ الذي
قضى الله في ليلى ، ولا ما قضى ليا
قضاما لغيري ، وابتلاني بحبها
فهلّا بشيء غير ليلى ابتلاني
وخبرْتُني أن « تياء » منزلُ
لليلى إذا ما السيف ألقى المراسيا^(٤)

(١) الأيفاع : جمع يفع ويفاع؛ كلُّ ما ارتفع من الأرض (التلال
المشرفة) .

(٢) الشيتين : اللذان ابتعد كل منهما عن صاحبه وتفرق بها الشمل.

(٣) لحى الله : قبح الله ولمن . طوال الدهر : طول الدهر .

(٤) تياء : اسم موضع .

فهذي شهور الصيف عبنا قد انقضت
 فما للنوى ترمي بليلي المرامي^(١)
 فيا ربّ سوء الحب بيني وبينها
 يكون كفافاً لا عليّ ولا ليـا
 فما طلع النجم الذي يهتدى به
 ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليـا
 ولا سرّت ميلاً من دمشق ، ولا بدا
 « سهيل » لأهل الشام إلا بدا ليـا^(٢)
 ولا سميت عندي لها من سمية
 من الناس إلا بلّ دمي ردائيا
 ولا هبت الريح الجنوب لأرضها
 من الليل إلا بت للريح حانيا
 فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها
 عليّ ، فلن تحموا عليّ القوافيا^(٣)

(١) النوى : البعاد .

(٢) سهيل : نجم بهي ، طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ .

(٣) تحموا بلادها عليّ : تمنعوا بلادها عليّ . فلن تحموا عليّ القوافيا :
 لن تستطيعوا منعي من التفتي بها في شعري .

شهادة عند الله :

فأشهدُ عند الله أني أحبها
فهذا لها عندي ، فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا
وبالشوق منّي والغرام قضى ليا
وإن الذي أملت يا أم مالك
أشاب فويدي واستهام فؤاديا (١)
أعدّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ
وقد عشتُ دهرًا لا أعد الليالي
وأخرج من بين البيوت لعلني
أحدث عنك النفس بالليل خاليا
أراني إذا صليت يمت نحوها
بوجهي ، وإن كان المصلي وراثيا
وما بي إشراك ولكن حبها
وعُظم الجوى ، أعيا الطبيب المداويا (٢)

(١) أم مالك : كنية « ليلي » . فويدي : الفريد تصغير الفود وهو معظم شعر الرأس .

(٢) عظم الجوى : شدة الوجد والهيام .

أعلى درجات الحب :

أحب من الأسماء ما وافق اسمها
 أو اشبهه ، أو كان منه مدانياً^(١)
 خليليَّ « ليلي » أكبر « الحاج » والمنى
 فمن لي بليلى ، أو فمن ذا لها بيا^(٢)
 لعمرى لقد أبكيتني يا حمامة الـ
 حقيق وأبكيتِ العيون البواكيا^(٣)
 خليليَّ ما أرجو من العيش ، بعدما
 أرى حاجتي تشرى ولا تشتري ليا^(٤)
 وتُجرم ليلي ثم تزعم أنني
 سلوت ، ولا يخفى على الناس ما بيا
 فلم أرَ مثلينا خليلي صابئة
 أشدَّ على رغم الأعادي تصافيا
 خليلان لا نرجو اللقاء ، ولا نرى
 خليلين إلاَّ يرجوان التلاقيا

(١) مدانيا : متقارباً ومشابهاً .

(٢) الحاج : جمع حاجة ، أي المآرب والغايات .

(٣) الحقيق : اسم موضع .

(٤) تشرى : تباع . أرى حاجتي : أي مآربي من الحياة وهو

« ليلي » .

وإني لأستحييك أن تعرض المنى
 بوصلك أو أن تعرضي في المنى ليا
 يقول أناس علّ مجنونَ عامر
 يريدُ سلواً ، قلت أنتي لما بيا (١)
 إذا ما استطال الدهر يا أم مالك
 فشان المنايا القاضياتِ وشانيا (٢)
 إذا اكتحلت عيني بمينك لم تزل
 بخيرٍ وجلّت غمرةً عن فؤاديا (٣)
 فأنتِ التي إن شئتِ أشقيتِ عيشتي
 وأنتِ التي إن شئتِ أشقيتِ باليا
 وأنتِ التي ما من صديقٍ ولا عدا
 يرى نضوً ما أبقيتِ إلا رثى ليا (٤)
 أمضوبة ليلي على أن أزورها
 ومُتخذٌ ذنباً لها أن ترانيا

(١) أنسى : أي كيف السبيل إلى ذلك !
 (٢) وشانيا : وشائي ، سهلتِ الهمزة لضرورة القافية .
 (٣) جلّت غمرة : أزاحت غماً رأسى .
 (٤) النضو : الإنسان المهزول والشوب البالي الممزق [يقصد بالنضو
 نفسه المحطمة الممزقة] .

إذا سرتُ في الأرض الفضاء رأيتني
أصانعُ رَحلي أن يميل خيالها (١)
يميناً إذا كانت يميناً ، وإن تكن
شمالاً ينازعني الهوى عن شمالها
وإنني لأستغشي وما بي نَعْسَة
لعل خيالاً منك يلقي خيالها (٢)
هي السحر إلا أن للسحر رُقِيَة
وإنني لا أُلقي لها الدهر راقياً (٣)
إذا نحنُ أدلجنا وأنتِ أماننا
كفَى لمطايافنا بذكراكِ هادياً (٤)
ذكَتْ نار شوقي في فؤادي فأصبحت
لها وهجٌ مستترمٌ في فؤادها (٥)

-
- (١) الرجل : الركاب . أصانع رحلي : أجعل السائرين معي يتجهون
الى حيث ليلى .
(٢) أستغشى : استحضر النوم . نَعْسَة : نعاس ورغبة شديدة في النوم .
(٣) رُقِيَة : خرز ورقاية أو ما يستعان به على السحر من قوى غيبية
متوهمة . لا أُلقي : لا أجِد . لا أُلقي لها الدهر راقياً : أي لا أجِد
لنفسي شفاءً من حبها .
(٤) أدلجنا : سرنا في الليل المظلم .
(٥) ذكَت : اشتعلت .

ألا أيها الركبُ اليانون عرّجوا
 علينا فقد أمسى هوانا يمانيا ^(١)
 أسألكم هل سال « نعمان » بعدنا
 وحُبّة إلينا بطنُ نعمان واديا ^(٢)
 ألا يا حمامي بطنِ نعمان ، هجّما
 عليّ الهوى لما تغنيتما ليا
 وأبكيتاني وسط صحي ، ولم أكن
 أبالي دموع العين لو كنتُ خاليا
 ويا أيها القمرِيتانِ تجاوبّا
 بلحنيكما ثم اسجّما علّانيا ^(٣)
 فإن أنما استطربتما ، أو أردتما
 لحاقاً بأطلال « الغُضَى » فاتبعانيا ^(٤)
 ألا ليت شعري ما لليلي وما ليا
 وما للصبّا بعد شيب علانيا

-
- (١) الركب اليانون : التجهون وجهة اليمن ، أي الجنوب .
 (٢) نعمان : اسم موضع .
 (٣) القمرِيتان : الحمامتان المفردتان . اسجّما : غرّدا . علّانيا :
 أشقياني من وجدي وحيي المبرّح .
 (٤) أطلال الغُضَى : أي الآثار المتبقية من المكان الذي كان يضمه
 ويحمله مع ليل، والذي شهد ذكرياتها معاً .

ألا أيها الواشي بليلى ، ألا ترى
إلى من تشبها أو بمن جثت وأشيا
لئن ظعن الأحبابُ يا أم مالك
فما ظعن الحب الذي في فؤاديا (١)

نداء إلى ليلي :

مُعذِّبتي ، لولاك ما كنت هائماً
أبيتُ سخين العينِ حرَّانِ باكياً (٢)
مُعذِّبتي ، قد طال وجدي وشفَّني
هواكٍ ، فيا للناس قلَّ عزائيا (٣)
وقائلةٍ وارحمتنا لشبابه
فقلت : أجل ، وارحمتنا لشبابيا
وددتُ على طيب الحياة لو أنه
يُزادُ ليلي عمرها من حياتيا
ألا باحمامات العراق أعنتني
على شجني ، وابكين مثل بكائيا

(١) ظعن : رحل .

(٢) سخين العين : عينه تبكي بشدة وحرقة . حرَّان : هفان .

(٣) شفَّني : أضنانني وأسقمي .

يقولون ليلى بالعراق مريضة
 فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
 تمرّ الليالي والشهور ، ولا أرى
 غرامي لها يزداد إلا تماديا (١)

دعاء أخير :

فيا ربّ إذ صيرت ليلى هي المني
 فزنتي بعينها كما زنتها ليا (٢)
 وإلا فبغضهم ————— إليّ وأهلها
 فإني بليلى قد لقيت الدواهيا (٣)
 على مثل ليلى يقتل المرء نفسه
 وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا (٤)
 خليلي إن ضنّوا بليلى ، فقرّبا
 لي النعش والأكفان ، واستغفروا ليا (٥) .

-
- (١) تمادياً : بلوغاً إلى مداه وإمعاناً في الأمر . ويروي : غرامي بها بدلاً من غرامي لها .
 (٢) فزنتي بعينها : جتاني بعينها .
 (٣) الدواهي : المصائب المهلكة .
 (٤) طاوياً : أي خلفياً أمري وحقيقة ما أكابده في نفسي .
 (٥) ضنّوا بليلى : منعوها عليّ وحرّموني منها . قرّبا لي النعش والأكفان : هيئوها وجبّزوها .

(بشينة)

لجميل بن معمر

وإني لأرضى من بشينة بالذي
لو أبصره الوائي لقرتْ بلائله
بلا ، وبالألا أستطيع ، وبالمى
وبالأملى المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة المعجلى ، وبالحول تنقضي
أواخره ، لا نلتقي ، وأوائله
كانت هذه أول أبيات أستمع إليها من شعر جميل ،
وساعتها تمثيت لو أن بين يدي ديوان شعره كله ، أطلعه
وأثامله ، وأتوقف مع قصة هذا الفتى العذري - نسبة إلى
قبيلة عذرة - الذي أصبح علماً على هذا اللون من الحب العف ،
يسمو بجرمانه وعفته وشفافيته ، ويرتفع عن شهوات النفس
ومطالب الجسد ، ممتلئ الوجدان بالمعنى الروحي ..

في شعر جميل بثينة ، نتعرف على أرقى نماذج الحب العذري
وأصفاها وأصدقها وتراً وأشدّها حرارة . هو شعر يمتلئ
بشكاوي النفس وما يلاقيه الحب المقيم من تباريح الوجد ،
وقسوة البعد ، ومرارة الحرمان . ولكنه مع ذلك ، صادق
اللوعة ، عف الضمير واللسان ، رصين التعبير ، غني القلب
موفور الحس والشعور . ثم هو دائماً شاعر عاشق يرضى من
محبوبته بالقليل ، بل بالأقل من القليل :

أيا ربح الشمال ، أما تريني
أهم ، وأنني بادي النحول
هي لي نسمة من ربح بثن
ومنتى بالهبوب على جميل
وقولي : يا بثينة حسب نفسي
قليلك ، أو أقل من القليل

وهو شاعر دائم الحديث عن بخل حبيبته ، لكنه حديث
الراضي المستسلم ، لا يسخط ولا يفضب ولا يتمرّد ، لا يهدد
ولا يتوعد ولا يثور ، وإنما هو مكتفٍ بمجرد الإشارة إلى
بخل بثينة بكل ما من شأنه أن يملأ حياته نعيماً وبهجة ، بخلها
بالوصال ، باللقاء ، بريّ الصدي المتعطش :

ألا إنها ليست تجود لذي الهوى
بل البخل منها شيمة ، والخلائق

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
نعم ، صدق الواشون ، أنت كريمة
عليّ ، وإن لم تصفُ منك الخلائق
وأقصى شكاواه أن يقول :

لقد خفت أن يفتالني الموت عنوةً
وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وإني لتثنيي الحفيظة ، كلما
لقيتك يوما ، أن أبشك ما بيا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني
أظلُّ ، إذا لم أسق ريقك ، صاديا

ويحدثنا التاريخ أن جميل بن عبد الله بن معمر العذري قد
سب فؤاده بثينة بنت حبان بن جُنَّ بن ربيعة العذري ،
فالشاعر وحبيته ينتميان إلى شجرة واحدة في النسب ،
ويقعان معا في مكان واحد هو وادي القرى - وهو موضع في
الحجاز قريب من المدينة .

وكما حدث لقيس بن الملوّح وليلاه بعد أن ذاعت قصة

حبها وتناقلت أخبارهما الركببان ، فحرمتم عليه وزوجت
من غيره ، حدث جميل وبثينة ، بعد أن ذاع شعره فيها
وهيامه بها ، وتحدث بها الناس في القبيلة وخارج القبيلة ، حتى
إذا جاء جميل إلى أبيها خاطباً رفضه أبوها خشية أن يقال إنه
زوجها منه سترأ لعارها ..

وتزوج بثينة إلى فتى من عذرة : هو نبيه بن الأسود ،
لكن زواجها لا يمنع جيلاً عنها ، فهو يزورها خفية في بيت
زوجها ، ويقول فيها القصيدة بعد القصيدة ، وتساعده هي
وتدبر له الأمر حيناً ثم تصد عنه أحياناً ، وهو في الحالين
مستطار اللب ، طائر العقل ، مسلوب القلب .

ونمضي الأيام ، ويدب اليأس في قلب جميل ، فيهاجر إلى
مصر ، ويمرض فيها مرضه الأخير .. حتى إذا حضرته الوفاة
كانت آخر كلماته من أجل بثينة حباً ، وتذكراً وتعلقاً
ووفاء ، حتى الرمق الأخير .. ويموت جميل سنة اثنتين وثمانين
من الهجرة ، ويبقى من بعده صوته الشعري المتوهج بالحرارة
والصدق ، ينطق بعذريته وعفته وصادق حبه ومكابדתه :

أرى كل معشوقين غيري وغيرها
يلذات في الدنيا ويمتبطان
وأمشي ونشي في البلاد كأننا
أسيران للأعداء مرتهنان

ضمنتُ لها ألا أهم بغيرها
وقد وثقتُ مني بغير ضمانِ

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لجميل مي أشهر قصائده ،
وأطولها ، وأكثرها تعبيراً عن فطرته العاشقة ، وأسلوب
الشعري ، الذي يتفق في الكثير من جوانبه مع الطابع العام
لشعر العذريين ، أمثال قيس بن الملوّح (مجنون ليلى) وكثير
عزة وقيس لبنى وعُروة بن حزام وأبي صخر الهذلي وغيرهم .
ويظل هذا الغزل العذري على لسان جميل وأضرابه عميق
التأثير في النفس ، شديد الإثارة للعاطفة ، وهو غزل لا يتوقف
عند مجرد التشبيب بمجاسن المرأة ومفاتنها - على عادة الشعر
العربي القديم - وإنما هو يتجاوز ذلك إلى الامتلاء الروحي
بنفس الشاعر ومشاعرها وآلامها وآمالها ، والتعبير عن طبيعة
العلاقة العفّة الصادقة الحب التي تربطه بحبيبته التي وقف عليها
قلبه دون سائر النساء ، وصارت وحدها ملهمته ومحوّر نجاحه
ونداءاته ..

يقول جميل بن معمر :

ألا ليت ريعان الشباب جديدُ
ودهرأ تولى - يا بشين - يعود^(١)

(١) ريعان الشباب : أوله وأفضله ونضارته .

فنبقى كما كنا نكون ، وأنتمو
 قريب ، وإذ ما تبذلن زهيد
 وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها
 وقد قرَّبت نضوى : أمصر تريد ؟ (١)
 ولا قولها : لولا العيون التي ترى
 لزرتك ، فاعذرني ، فدتك جدود
 خليلي ، ما ألقى من الوجد باطن
 ودمعي - بما أخفي الغداة - شهيد
 ألا قد أرى ، والله ، أن رُبَّ عبرة
 إذا الدار شطَّت بيننا ستزيد (٢)
 إذا قلت : ما بي يا بشينة قاتلي
 من الحب ، قالت : ثابت ويزيد
 وإن قلت : ردِّي بعض عقلي أعش به !
 تولت وقالت : ذاك منك بعيد
 فلا أنا مردود بما جئت طالبا
 ولا حبها فيما يبيد يبيد (٣)

(١) نضوى : النضو : الهزل ، والمقصود به هنا : ناقي الهزلة
 م الأشياء : من الأشياء .

(٢) عبرة : دمة ، شطت : بعدت وتناوت .

(٣) يبيد : يفنى ويذول .

جزتك الجوازي يا بشين سلامة
 إذا ما خليل بان وهو حميد^(١)
 وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي
 من الله ميثاق^٢ له وعهد
 وقد كان حُبِّيكم طريفاً وثالداً
 وما الحبُّ إلا طارف^٣ وتليد^(٢)
 وإن عروض الوصل بيني وبينها
 وإن سهلتَه بالمتى لكؤود^(٣)
 وأفنيت عمري بانتظاري وعدّها
 وأبليت فيها الدهر وهو جديد
 ويحسب نسوان^٤ من الجهل أني
 إذا جئت إياهن كنت أريد^٤
 فأقسم طرفي بينهنّ فيستوي
 وفي الصدر بون^٤ بينهن بعيد^(٤)

(١) الجوازي : جمع جازية ، وهي المكافأة . بان : رجل .
 (٢) طارف وتليد : حديث وقديم .
 (٣) المروض : الطريق الوعر في عرض الجبل يكتنفه مضيق ،
 والمقصود به هنا : واقع الحال بينه وبين حبيبته في الوصال واللقاء .
 كؤود : الشاق ، الصعب .
 (٤) أقسم طرفي : أوزع النظر .

ألا ليت شعري هل أبين ليلة
 بوادي القرى ، إني إذن لسعيد^(١)
 وهل أمبطن أرضاً تظل رياحها
 لها بالثنايا القاويات وثيد^(٢)
 وهل ألقين^٣ « سعدى » من الدهر مرة
 وما رث^٤ من جبل الصفاء جديد
 وقد تلتقي الأشتات بعد تفرق
 وقد تدرك الحاجات وهي بعيد^(٥)
 إذا جئتها يوماً من الدهر ، زائراً
 تعرض منفوس اليمين صدود^(٥)
 بصدئ ويغضي عن هواي ويحتني
 ذنوباً عليهم ————— ، إنه لعنود

-
- (١) وادي القرى : اسم موضع قرب المدينة ، كان يقيم فيه قوم
 جيل وبشينة .
 (٢) الثنايا القاويات : الطرق الحالية . وثيد : صوت عال شديد .
 (٣) رث : قدم وبلي .
 (٤) الأشتات : جمع شتيت ، أي المتفرق والمتبعد .
 (٥) المنفوس : من أصابته رعدة الحمى . والرعدة هنا بسبب الغضب
 والغيرة ، والمقصود به زوج بشينة .

فأصرمها خوفاً ، كأنني بجانب
ويغفل عنا مرةً ، فنعود^(١)
ومن يُعطَ في الدنيا قريناً كمثلاً
فذلك في عيش الحياة رشيد^(٢)
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها
ويحيا إذا فارقتها فيعود
يقولون : جاهد يا جميل بغزوة
وأَيَّ جهاد غيرهن أريد !
لكلّ حديث عندهن بشاشة
وكل قتيل عندهن شهيد
وأحسن أيامي ، وأبهج عيشتي
إذا هيج بي يوماً وهن قعود
تذكرت ليلى فالفؤاد عميد
وشطّ نواها فالنزار بعيد^(٣)

(١) أصرمها : أجافها وأفطمها . بجانب : مبتعد لا غاية له فيها .

(٢) قريناً : زوجة .

(٣) العميد : العاشق المتيم الذي هدّه العشق . شطّ نواها : بعدت .
بها المسافات .

علقت الهوى منها وليداً ، فلم يزل
إلى اليوم ينمي حبها ويزيد^(١)
فما ذكر الخلان إلا ذكرتها
ولا البخل إلا قلتُ سوف تجود
إذا فكرت قالت : قد أدركتُ ودّه
وما ضرّني بخلي ، فكيف أجود^(٢)
فلو تكشفُ الأشياء ، صودف تحتها
لبثنة حبّ طارف وتلبد
ألم تعلني يا أم ذي الودع أنني
أضاحك ذكراكم وأنتِ صلود !^(٣)

(١) علقت الهوى : أصابني الهوى وملكني . ينمي : يزيد
ويتضاعف .

(٢) قد أدركت رده : قد استحوذت على مودته وحبّه رغم بخلها .

(٣) الودع : خرزات بيض تستخرج من البحر تشق كالنواة وتعلق
في أعناق الأطفال لدفع الحسد ، والمقصود بأم ذي الودع : بشينة .
صلود : بخيلة جداً .

فهل ألقين فرداً بثينة لیسلة
تجود لنا من ودها ونجود^(١)
ومن كان في حيي بثينة يمتری
« فبرقاء ذي ضال » عليّ شهيد^(٢)

(١) فرداً : منفرداً ، بعيداً عن الناس .

(٢) يمتری : يشك . برقاء ذي ضال : اسم موضع كان جميل وبثينة يلتقيان فيه بعيداً عن الرقباء .

[لُبْنَى] !

لقيس بن دريح

يقول عنه ابن فضل الله العمري في كتابه : « مسالك
الأبصار » :

عاشق شفه التبريح ، ووامق لم يشفه التصريح ، تيممه
حُبُّ لُبْنَى وهيمه هواها فما أغنى ، أصبته حسنا وسبته
بمحيا كالبدر أو أسنى ، جلبت له حزناً طويلاً ، وجنت له
من روض حسنها مرعى وبيلاً ، تزوج بها وهو بها كليف ،
وبجبتها شغف ، ثم أدمن مجالستها وأدمن مؤانستها ، وولع
بتأمل محاسنها ، وتنتقل نظره في رؤية أحاسنها ، حتى طبع
هواها على قلبه ، وطلع أنينه بما قطع من خلبه ، وألف لأجلها
ظل الحباء لا يفارقه ، وأنكر فضل الحياء كأنه ما دبّت
بجده شقائقه .

فعرّ هذا على أبيه ، وطالبه بطلاقها فأبى ، وأبى أبوه إلا
أن يذيقه مرارة فراقها على صبي . ثم لما رأى إصراره على

حب لبني واستمراره على حاله المغني ، أصر أبوه وآلى ألا
يستظل بيت حتى يلقي حبها على غاربها ، ويلقى خطاها
بيت أقاربها ، وكان أوان حرّ تلفح هواجره وينفح بالسموم
ناجره .

فأقبل كهول الحي على قيس يلومونه على حقوق أبيه ،
ويخوفونه عقوق أمره في امرأة تصببه ، ثم ما برحوا به حتى
طلقها . فما انطلقت إلا هي ولُبه ، وفارقها فما فارقت إلا
ومعها قلبه . ووجد بها وجداً أفلت مضاجعه ، وقلقل في
المآقي مدامعه ، وزوجه أبوه بامرأة غيرها ليسلو لبني ويخلو
معا أياماً ينسى بها لياليه الحسنى ، فما وقعت الثانية منه
موقعاً ، ولا وجدت في قلبه موضعاً ، فبيدت فراقها ، وبنت
طلاقها .

ثمّ الناس في قيس على قسمين : فمنهم من زعم أنه ردّها ،
ونعم بها ليل التام يفتش بُردّها ، ومنهم - وهم الجمهور -
على أنه بقي بخباله ، صريع هوى ما أفاق ، وقريع جوى
هوى من أحبابه بالفراق . . .

* * *

هذه هي القصة ، قصة قيس ولبنى كما جاءت في كتب
التراث العربي القديم ..

وقيس هذا هو قيس بن ذريح بن الحباب بن سنّة ..

ينتهي نسبه إلى خزيمه من عرب الشمال .. ويقولون إنه من
أعراب الحجاز، وإن قوم قيس كانوا ينزلون في ظاهري المدينة،
أما هو وأبوه فكانا من حاضرتها .. ويبدو أنه كان كثير
التنقل بين بوادي المدينة حيث يقيم أهله وبوادي مكة حيث
يقيم أهل أمه من خزاعة .

أما لبنى هذه التي تغنى بها قيس ، وصار منسوباً إليها ،
فهي لبني بنت الحباب أم معمر ، من بني كعب من خزاعة ،
يصفونها بأنها كانت مديدة القامة ، يخالط سواد عينيها زرقه ،
حلو المنظر والكلام ، وقالوا أيضاً إنها كانت بهية الطلعة ،
عذبة الكلام ، سهلة المنطق . وتبدأ القصة على هذه الصورة :
في إحدى زورات قيس لأخواله ، اشتد الحر فشعر
بالظمأ ، فوقف على خيمة والرجال غائبون ، فطلب ماء ،
فبرزت له لبنى فسقته وأعجب بها ، وطلبت إليه أن يستريح
عندهم حتى تخفف وطأة القيظ ، فلباها وتحادثا ، فملكت عليه
فؤاده ، وملك عليها فؤادها ، وقدم أبوها فرحب به ونحر له ،
واحتمى ، وأكرمه . وانصرف قيس وقد غلبه الهوى ،
فأنطقه شعراً رواه الرواة ، وشاع في المجالس .

ويتزوج قيس من لبنى ، ويجمع شمل الحبيبين ، ويقبضان
أمداً في ظل سعادة وارفه ، وهناك متصل ..

لكن قيساً - وحيد والديه الثرين - ينسيه حبه للبنى
وزواجه منها كل شيء آخر في حياته .. فتغضب أمه لما ترى

من اغتصاب امرأة أخرى له ، فتكيد لزوجته ، وتفتن في الإيقاع بينها .. خاصة وأن لبنى لم تنجب من قيس . ويستمر الحال هكذا عشر سنوات .

ثم يجتمع عليه أبوه وقومه ناصحين له بالزواج من إحدى بنات عمه ، لعل الله أن يهب له ولداً يرث ثروة الأسرة من بعده .. ولا يستجيب لهم قيس ، فيجيئه القوم ثانية من كل ناحية ، ويعظمون عليه الأمر ، إذ كيف يفعل هذا بأبيه وأمه ؟ ولئن مات أبوه على هذه الحال فهو 'معين' وشريك في قتله .

ويصطرع في نفس قيس برؤه بوالديه وحب لزوجته ، ولا تحتل نفسه هذا الموقف الصعب ، وأخيراً ينهار في لحظة ضعف فيرضخ لطلب أبويه وإلحاح قومه ، ويطلق لبنى .

ثم لا يلبث قيس أن يستشعر وقع القبيحة ، فجيئته في حبه ، ويحس بالفراغ الذي خلفته لبنى في حياته ، واللوعة التي ملكت كل جوانحه ، فينطلق لسانه بالأشعار الباكية .

* * *

نحن إذن أمام واحدة من قصص الحب العذري ، بطلاها عاشا في مستهل القرن الأول الهجري - فالروايات تذكر لنا أن قيساً 'ولد بين عامي أربعة وستة للهجرة - واختلطت قصتها - بما تملأ به من حكايا وأشعار - ببقية قصص هذا الحب ، خاصة بقصة قيس بن الملوّح وليلاه - المعروف باسم

مجنون ليلى - وأصبح الناس ينسبون شعر هذا إلى ذاك ،
ما دام كله شعراً. عذرياً ، واضح الخصائص والسمات ، بل
وينسبون القطعة الواحدة إلى شعراء متعددين .. لهذا فنحن
نجد في ديوان قيس لبنى أربعاً وعشرين مقطوعة يتنازعها مع
مجنون ليلى ، فضلاً عن قصائد أخرى يتنازعها مع جميل بثينة
وابن الدثينة وكثير عزّة وعروة بن حزام ..

وفي شعر قيس بن ذريح ما نجده في شعر العذريين من رقة
وجزالة ، وعاطفة صادقة مشبوبة .. وتعبير جميل أسر .
يقول عنه القدماء : « ونظمه في الذروة العليا رقة وحلاوة
وجزالة » . وأطول قصائده وأشهرها هي قصيدته العينية ،
التي نطالع فيها صورة صادقة لحبه العميق للبنى ، متضمنة
ندمه ولوعته بعد طلاقها منه وفراقها له ، ولكن هيهات ينفع
الندم ، إن خلاصه الوحيد في البكاء ، وبث شجونه ولوعة
هيامه ، خلال أبيات يرسلها وقد حملت زفراتٍ من سحر قلبه
وحرارة معاناته ..

يقول قيس بن ذريح :

عفا سرفٍ من أهله فسُراوعُ
فجنبنا أريكٍ فالتلاعُ الدوافعُ^(١)

(١) سرف وسراوع : موضعان بالقرب من مكة . أريك : واد في
بلاد بني مرة . التلاع : جمع تلعة ، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي .
الدوافع : التي تدفع وتهبط إلى الوادي .

لعلَّ لُبَيْنِي أَنْ يُحَمَّ لِقَاؤَهَا
 بيمض البلاد ، إنَّ ما حُمَّ واقعٌ (١)
 يجزَع من الوادي خلا عن أنيسه
 عفا وتخطَّته العيون الخوادم (٢)
 ولما بدا منها الفراق ، كما بدا
 بظهر الصفا الصلِّ الشقوق الشوائع (٣)
 تمنيتَ أن تلقى لُبَيْنَاكَ ، والمنى
 تعاصيك أحياناً ، وحيناً تطاوع
 وما من حبيبٍ وامقٍ لحبيبه
 ولا ذي هوىٍ إلَّا له الدهر فاجعٌ (٤)
 وطار غراب البين وانثقت العصا
 بينكما شقَّ الأديم الصوانع (٥)

-
- (١) حُمَّ : قدر وتفضي .
 (٢) الجزع : بجانب الوادي ومنعطفه. عفا : درس وزال . الخوادم : التي لا تنام .
 (٣) الصفا الصلِّ : الحجر الصلب الضخم . الشوائع : المفترقة أو الظاهرة .
 (٤) وامق : شديد الحب .
 (٥) البين : الفراق . انثقت العصا : تفرقت الأديم . الأديم : وجه الأرض . الصوانع : جمع صانع .

ألا يا غراب البين قد طرت بالذي
أحاذر من لُبنى ، فهل أنت واقع !
وإنك لو أبلغتها قيلك : اسلمي
طَوَتْ حزنًا وارفُضٌ منها المدامع ^(١)
أُقبكي على لُبنى ، وأنت تركتها
وكنْتَ كَاتِغِيهِ وهو طائع ؟ ^(٢)
فلا تبكين في إثر شيءٍ ندامةً
إذا نزعته من يديك النوازع
فليس لِأمرٍ حاول الله جَمْعَهُ
مُشِتٌ ، ولا ما فرّق الله جامع ^(٣)
طمعت بلبني أن تَرجِعَ ، وإنما
تَقْطَعُ أعناق الرجال المطامع ^(٤)
كأنك لم تقنع إذا لم تُتلاقها
وإن تلقيا فالقلب راضٍ وقانع

(١) قيلك : قولك . ارفض : سال وتفرق .

(٢) الغي : الضلال والخبية .

(٣) مُشِتٌ : مفرق .

(٤) ترجع : رجع .

فيا قلبُ خبّرني إذا شطّئت النوى
 بلبنى وصدّت عنك ما أنت صانع ^(١)
 أتصبرُ للبينِ المُشيتِ مع الجوى
 أم أنت امرؤُ ناسي الحياء فجازع
 فما أنا إن بانّت لُبيني بهاجع
 إذا ما استقلت بالنيام المضاجع
 وكيف ينام المرء مستشعر الجوى
 ضجيج الأسى فيه نكاسٌ روادع ^(٢)
 فلا خيرَ في الدنيا إذا لم تُواتِنَا
 لُبيني ، ولم يجمع لنا الشمل جامع
 أليست لبيني تحت سقفٍ يُكِنها
 وإيتاي ، هذا إن نأت لي نافع ^(٣)
 ويلبسُنَا الليل البهيمُ إذا دجا
 ونبصر ضوء الصبح والفجرُ ساطع ^(٤)

(١) شطت : بعدت .

(٢) النكاس : جمع نكس وهو المرض المعاند الذي لا يبرح . الروادع :
 جمع وادعة وهي التي تردعه (تمنعه) عن الحركة والتصرف .
 (٣) يكُنّها : يحميها ويؤويها . السقف : المقصود به هنا هو السماء .
 (٤) دجا : أظلم .

تطا تحت رجلها بساطاً وبعضه
 أطاهُ برجلي ، ليس بطويه مانع^(١)
 وأفرح إن أمست بخير وإن يكن
 بها الحدث العادي ترعني الروائع^(٢)
 كأنك بدع لم ترّ الناس قبلها
 ولم يطلّك الدهر فيمن يطالع
 فقد كنت أبكي والنوى مطمئة
 بنا وبكم من علم ما البين صانع
 وأهجركم هجر البغيض ، وحبكم
 على كبدي منه كلوم صوادع^(٣)
 فواكبدي من شدة الشوق والأسى
 وواكبدي إني إلى الله راجع
 وأعجل للإشفاق حتى يشفّني
 بخافة وشكّ البين والشمل جامع^(٤)

(١) تطا : تطأ (وخففت الهزة) .

(٢) الحدث العادي : الخطب الجسيم النازل بها . ترعني : تفزعني .
الروائع : المفزعات .

(٣) الكلوم : جمع كلم ، الجرح . الصوادع : المزلزلة المؤثرة .

(٤) يشفّني : يفيئني . شكّ البين : قرب الفراق .

وأعمد للأرض التي من ورائكم
لترجمني يوماً إليك الرواجع
فيا قلب صبراً واعترافاً لما ترى
ويا حبها قمع بالذي أنت واقع
لمعري لمن أمسى وأنت ضجيجة
من الناس ما اختيرت عليه المضاجع^(١)
ألا تلك لبني قد تراخي مزارها
وللبين غمّ ما يزال ينازع
إذا لم يكن إلا الجوى ، فكفى به
جوى حُرّقٍ قد ضمنتها الأضالع
أبائنة 'لبنى ولم تقطع المدى
بوصلٍ ولا صَرمٍ فييأس طامع^(٢)
يظل نهارُ الواهينَ نهاره
وتهدنه في النائمين المضاجع^(٣)

(١) ضجيجة : زوجته وحليلته . لما اختيرت عليه : ما فضلت عليه .

(٢) الصرم : القطيعة والفراق .

(٣) الواهين : جمع واله ، الشديد الحزن والوجد حتى ليكاد يفقد عقله . تهدنه : تسكنه وتهدئه .

سواءٌ ، فليلي من نهاري وإنما
تقسم بين الهالكين المصارع^(١)
ولولا رجاء القلب أن تسعف النوى
لما حملته بينهن الأضالع
له وجباتٌ إثر لُبني ، كأنها
شقائق برقي في السحاب لوامع^(٢)
نهاري نهار الناس حتى إذا دَجَا
ليَ الليل هزَّتني إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى
ويجمعي والهمَّ بالليل جامعُ
لقد ثبتت في القلب منك مودة
كما ثبتت في الراحتين الأصابع^(٣)
أبى الله أن يلقى الرشاد مُتيمٌ
ألا كلُّ أمرٍ حمٍّ لا بدَّ واقع^(٤)

-
- (١) سواء : أي سواء عليّ ليلي ونهاري فيها متشابهان في وقعها عليّ .
(٢) وجبات : خفقات ، شقائق برقي : موجات من البرق المتتابع .
(٣) الراحتان : اليدين . [هذا البيت والبيتان السابقان له ينسبها
الرواة إلى مجنون ليلي أيضاً] .
(٤) حمٍّ : 'قدر' ونزل .

هما برّحاي بي مُعولينِ كلاهما
 فؤادُ وعينُ جفنها - الدهر - دامع^(١)
 إذا نحنُ أنفدنا البكاءَ عَشِيَّةً
 فوعدنا قَرْنُ من الشمس طالع^(٢)
 وللحبِ آياتُ تبيّنُ بالفق
 شحوبٌ وتقرى من يديه الأشاجع^(٣)
 وما كلُّ ما منثكَ نفسكَ خالياً
 تلاقِي ، ولا كلُّ الهوى أذتُ تابعُ
 تداعت له الأحزانُ من كلِّ وجهة
 فحنُّ كما حنَّ الظُّؤار السواجع^(٤)
 وجانبُ قُربِ الناسِ يخلو بهم
 وعاوده فيها هيامُ مراجعُ

(١) برّحاي بي : أتعباني وأجهداني . الدهر : طول الدهر .
 (٢) أنفدناه : أنهيناه ولم نترك منه شيئاً . قرن من الشمس : شروق
 الشمس في صباح اليوم التالي .
 (٣) تبيّن : ظهر . الأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بالأعصاب
 أو هي عروق ظاهر الكف . وتقرى الأشاجع : أي تهزل اليداث
 ويلدب ما عليهما من لحم .
 (٤) تداعت : أقبلت وتجمعت . الظؤار : النياق التي تعطف على ولد
 غيرها . للسواجع : التي يور بها الحنين .

أراك اجتنبْتَ الحيَّ من غيرِ بَغْضَةٍ
 ولو شئتَ لم تجنحِ إليك الأصابعُ ^(١)
 كأنَّ بلادَ الله ما لم تكن بها
 - وإن كان فيها الخَلْقُ - قفراً بِلَاقِعٍ ^(٢)
 ألا إنما أبكي لما هو واقعٌ
 وهل جزعٌ من وشكٍ بينك نافعٌ ؟
 أحال عليَّ الدهرُ من كلِّ جانبٍ
 ودامت فلم تبرحِ عليَّ الفجائعُ ^(٣)
 فمن كان محزوناً غداً لفراقنا
 فإلآنَ فليبكِ لما هو واقعٌ ^(٤)

-
- (١) بغضة : كراهية وعداوة . تجنح : تميل .
 (٢) بلاقع : جمع بلقع وهي الأرض الخراب القفر .
 (٣) أحال عليَّ : دفع بالمصائب وصرفها اليَّ .
 (٤) فلآن : فمن الآن .

عزّة..

لكثيرِ عزّة

يُزهِدني في حبّ عزّة معشر
قلوبهم فيها 'مخالفة' قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتنى
فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

* * *

هو كثير بن عبد الرحمن الخزاعي ، شاعر حجازي من شعراء العصر الأموي ، ويكنى أبا صخر، اشتهر بكثيرِ عزّة نسبة إلى محبوبته عزّة التي قال فيها أكثر شعره في الغزل والتشبيب ، والعزّة في اللغة هي بنت الطيبة ، أما عزّة هذه فهي بنت جميل بن حفص وكنيتها أم عمرو وكان يطلق عليها أيضاً الحاجية نسبة إلى جدها الأعلى .

ويقول لنا رواة الشعر العربي القديم إن كثير عزة أحد
عشاق العرب البارزين ، وانه شاعر أهل الحجاز ، وإنهم
ليقدمونه على كثير من شعراء أهل زمانه حتى لقد قال بعضهم
إنه أشعر أهل الإسلام ...

ثم يقدمون له صورة وصفية طريفة ، فهو قصير شديد
القصر ومن هنا كانت تسميته بكثير على سبيل التصغير . يقول
الوقاصي : رأيت كثيراً يطوف بالبيت فمن حدثك أنه يزيد
على ثلاثة أشبار فلا تصدقه ، وكان كثير إذا دخل على
عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي - يقول له : طأطأ
رأسك حتى لا يصيبه السقف ..

ويصرح كثير نفسه بهذا القصر في شعره فيقول :

وإن أكُ قصرأ في الرجال فإنني

إذا حلُّ أمرُ ساحتي لطويل

ثم يضيفون أنه كثير الاعتداد بنفسه ، كثير العجب
والزهو والخيلاء ، حتى إن الناس كانوا يحيثونه من وراء
فيأخذون رداءه فلا يلتفت من الكبير ويمضي في قميص ...
وإنه كان يؤمن بالرجعة والتناسخ .

وكان خلفاء بني أمية - وفي مقدمتهم عبد الملك بن مروان -
شديدي الإعجاب بشعره ، خاصة مدائحه . يروون أنه قال
 يوماً لعبد الملك : كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين ؟

قال : أراه يسبق السحر ويفلب الشعر ..
وقال له عبد الملك يوماً : من أشعر الناس يا أبا صخر ؟
قال كثير : من يروي أمير المؤمنين شعره .
فقال عبد الملك : إنك لمنهم ..

ويتفنن الرواة في صياغة أخباره وقصصه مع محبوبته عزة ،
وكيف بدأ تعشقه لها ، فيقولون إنه مرّ ذات يوم بنسوة من
بني حزمة ومعه قطع أغنام ، فأرسلن إليه «عزة» وهي بعد
صغيرة فقالت له : تقول لك النسوة بعنا كبشاً من هذه الغنم ،
وانسنا بثمنه إلى أن ترجع - أي أمهلنا في دفع ثمنه حتى
تعود - فأعطاهما كثير كبشاً ، ووقعت هي من قلبه موقعاً
عظيماً ، فلما رجع جاءت امرأة منهن بدراهمه فقال لها :
وَأَيْنَ الصبية التي أخذت مني الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها ؟
هذه دراهمك ، فقال : لا آخذ دراهمي إلا ممن دفعت إليّ :
وانصرف وهو ينشد :

قضى كلُّ ذي دينٍ فوقِّي غريمه
وعزّةٌ ممطولٌ مُعنى غريمها
فقلن له : أبئت إلا عزّة ! وأبرزنها له وهي كارهة . ثم
إنها أحبته بعد ذلك أشدّ من حبه لها .

ويحلو للقدماء أيضاً أن يقارنوا بينه وبين جميل بن معمر
صاحب بثينة . فيقولون إن كثيراً يتقول ولم يكن عاشقاً أما

جميل فكان صادق الصبابة والعشق ، وإن جيلاً كان يصدق في حبه أما كثير فيكذب في حبه ..

ثم يضيفون أن عدد النساء اللواتي شيعنه عند موته كان أكثر من عدد الرجال ، وكن يبكينه ويذكرن عزته في نديهن .. وكادت وفاته في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة خمس ومائة من الهجرة ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن من شعر كثير هي أطول قصائده على الإطلاق ، وأشهرها ، وأكثرها ذيوماً ، والقديما يعدونها من منتخباته ، والغريب أن كثيراً يلتزم في ختام أبيات هذه القصيدة حرف اللام قبل حرف الروي وهو التاء ، فجعل لها قافية مزدوجة من اللام والتاء ، فهي إذن صورة متقدمة لشعر الزوميات الذي عرفناه بعد ذلك عند أبي العلاء المعري . وهذه القصيدة - الناطقة بفن كثير الشعري ، وأسلوبه السهل المتنوع في صياغة المعنى الشعري والصورة الشعرية - قصة طريفة ، من الطريف أن نستمع إليها .

روي أن عبد الملك بن مروان سأل كثير عزة عن أعجب خبر له مع عزة فقال : يا أمير المؤمنين حججت ذات سنة وحج زوج عزة معها ولم يعلم أحدنا بصاحبه ، فلما كنا ببعض الطريق أمرها زوجها بابتياح سمنٍ تصلح به طعاماً لرفقته فجعلت تدور بالحياض خيمة خيمة حتى دخلت إليّ وهي لا تعلم أنها

خيمتي وكنت أبري سها ، فلما رأيتها جعلت أبري لمي
وأنظر إليها حتى برت ذراعي وأنا لا أعلم به والدم يجري ،
فلما علمت ذلك دخلت إليّ فأمسكت يدي وجعلت تمسح
الدم بثوبها ، وكان عندي نجىء سمن (وعاء سمن) فحلفت
لتأخذه فأخذه ، وجاء زوجها فلما رأى الدم سأها عن خبره
فكأته حتى حلف عليها لتصدقنه فصدقته فضرها وحلف
عليها لتشتمني في وجهه فوقفت عليّ وقالت لي وهي تبكي :
يا ابن (....) فأنشدت :

خليّ ، هذا ربع عزة ، فاعقلا
قلوسيكما ، ثم ابكيا حيث حلت^(١)
ومسّا ترابا كان قد مسّ جلدتها
وبيتنا وظلاً حيث باتت وظلت^(٢)
ولا تياسا أن يحو الله عنكما
ذنوباً إذا صليتما حيث صلت^(٣)
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولت^(٤)

(١) ربع عزة : موضع دارها . اعقلا : شدا واربطا . قلوسيكما :
القلوص الناقة الشابة النشيطة .

(٢) تولت : ذهبت وأدبرت .

- وقد حلفت جهداً بما نحرته له
 قريشُ غداة « المأزمينر » وصلت (١)
 أناديك ما حج الحجيج وكبرت
 « بفيها غزالر » رفقة وأهلت (٢)
 وما كبرت من فوق « ركة » رفقة
 ومن « ذي غزال » أشمرت واستهلت (٣)
 وكانت لقطع الجبل بيني وبينها
 كناذرة نذراً ، فأوفت وحلت (٤)
 فقلت لها : يا عزء كل مصيبة
 إذا وطئت يوماً لها النفس ذات (٥)

(١) المأزمان : موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة (بين عرفة والمزدلفة) وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرفة وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين صلاتي الظهر والعصر . حلفت جهداً : أي بالفت في البمين .

(٢) بفيها غزال : أي بفيها غزال ، موضع بمكة حيث ينزل الناس منها إلى الأبطح . أهلت : رفعت صوتها بالتلبية . ما حج الحجيج : أي طيلة مدة حج الحجيج .

(٣) ركة : واد بين مكة والطائف . رفقة : رفاق ، جمع رفيق . أشمرت : جعلت لنفسها شامراً . وشعار القوم علامتهم في السفر .

(٤) حلت : أوفت بمهدما وخرجت من ميثاق كان عليها .

(٥) وطن نفسه على الشيء : أي حلها عليه حتى تدل له وتخفض .

ولم يلق إنسان من الحب ميمةً
 تعمُّ ، ولا عميةً إلا تجلت (١)
 تمنيتها حق إذا ما رأيتها
 رأيت المنايا شرّاً قد أظلت (٢)
 كأني أنادي صخرة حين أعرضت
 من الصم لو تمشي بها العصم زلت (٣)
 صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة
 فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت
 أباحت حمى لم يرعه الناس قبلها
 وحلت تلاعاً لم تكن قبل حلت (٤)
 فليت قلوصي عند عزة قيدت
 بجبل ضعيف 'حز' منها فضلت

(١) ميمة الشيء : أوله أو معظمه . تعم : تشمل . العمياء : الضلالة والجهالة . تجلّت : انكشفت وانفجرت .

(٢) المنايا : جمع منية ، الموت . شرّاً : مسددة ، موجهة .

(٣) الصم : الصخور الصلبة المصمتة . العصم : جمع عصماء والأعصم من الظبا والوعول ما في ذراعيه أو إحداهما بياض وسائرته أحمر أو أسود . زلّت : زلقت .

(٤) التلاع : جمع تلة ، الأرض المرتفعة .

وغودر في الحي المقيمين رحلها
 وكان لها باغ سواي فبلت (١)
 .كنت كذي رجلين : رجل صحيحة
 ورجل رمى فيها الزمان فشلت
 وكنت كذات الظلع لما تحاملت
 على ظلمها بعد العثار استقلت (٢)
 أريد الثَّواء عندها ، وأظنها
 إذا ما أطلننا عندها المَكثَ ملت (٣)
 فما أنصفت ، أما النساء فبفضت
 إليَّ ، وأما بالنوال فضت (٤)
 يكلفها الغيران شتمي ، وما بها
 هواني ، ولكن للمليكِ استذلت (٥)

-
- (١) بلت : هامت ضالةً على وجهها .
 (٢) كذات الظلع : كالناقة العرجاء . تحاملت : تكلفت الشيء بمشقة .
 استقلت : ذهبت وارتحلت .
 (٣) الثَّواء : الإقامة . المكث : البقاء .
 (٤) النوال : العطاء ، والمقصود به الوصال .
 (٥) الغيران : ذو الغيرة ، يقصد به زوج عزة . المليك : أي المالك
 الذي يملك وهو زوج عزة . استذلت : هانت وخضعت .

هنيئاً مريئاً - غير داء مخامر -
لعزة من أعراضنا ما استعطت (١)
فوالله ما قاربنا إلا تباعدت
بصرم ، ولا أكرت إلا أقلت (٢)
وكنا سلكننا في صعود من الهوى
فلما توافينا : ثبت وزات
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا
فلما توائقنا : شددت وحلت
فإن تكن العنبي فأهلاً ومرحباً
وحقت لها العنبي لدينا وقلت (٣)
وإن تكن الأخرى ، فإن وراءنا
منادح لو سارت بها العيس كلت (٤)

-
- (١) مخامر : غالط ومداخل . من أعراضنا ما استعطت : يقصد تثبته في عرضه إطاعة لأمر زوجها .
(٢) صرم : قطيعة ومجران .
(٣) العنبي : الرضى وإزالة اللوم .
(٤) منادح : جمع مندوحة وهي الأرض الواسعة البعيدة . العيس جمع عيساء وأعيس : الإبل البيض الكريمة يخالطها شقرة أو ظلمة خفيفة . كلت : تعبت من السير .

- خليليّ إن الحاجبية طلحت^(١)
 قلو صيكا ، وناقني قد أكلت^(٢)
 فلا يبعدن وصل لعزة ، أصبحت
 بعاقبة أسبابه قد تولت^(٣)
 أسيتي بنا أو أحسن ، لا ملومة^(٤)
 لدينا ، ولا مقلية إن نقلت^(٥)
 ولكن أنيلي ، واذكري من مودة
 لنا خلّة كانت لديكم فطلت^(٦)
 فإني وإن صدّت لثني وصادق
 عليها ، بما كانت إلينا أزلّت^(٧)
 فلا يحسب الواشون أن صباقي
 بعزة كانت غمرة فتجلّت^(٨)

-
- (١) الحاجبية : يقصد بها عزّة. طلحت وأكلت : أنعبت وأجهدت.
 (٢) فلا يبعدن : فلا يهلكن . بعاقبة : في ختام الأمر .
 (٣) مقلية : مبغضة ومكروهة من القلي ، أي البغض . نقلت :
 تبغضت .
 (٤) الخلّة : الحبة والصدقة . طلّت : أي منعت وأهدرت .
 (٥) أزلّت : أدت وأعطت .
 (٦) الواشون : الذين يشون بالنميمة ويزينون الكذب . غمرة : شدة .
 تجلّت : انفرجت .

- فأصبحتُ قد أبليتُ من دَنَفٍ بها
 كما أدنِفتُ هَيْمَاءَ ثم استبلتُ ^(١)
 فواللهِ ثم الله ما حلَّ قبلها
 ولا بعدها من خَلَةٍ حيث حلَّت ^(٢)
 وما مرَّ من يومٍ عليَّ كيومها
 وإن عظمت أيام أخرى وجلَّت ^(٣)
 وأضحت بأعلى شأقي من فؤاده
 فلا القلب يسلاها ولا العين ملَّت ^(٤)
 فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
 وللنفس لما وطنت كيف ذلت ^(٥)

(١) أبليت : شفيت . الدنف : المرض الملازم . الهيماء : الناقة التي أخذها الهيام وهو داء يصيب الإبل فتظل تهم في الأرض دون أن ترعى حتى تموت . استبلت : برئت وشفيت .

(٢) الخلة : الخلية ، أي الحبيبة والصديقة .

(٣) أيام أخرى : أي أيام امرأة أخرى . جلت : عظمت .

(٤) الشاق : المرتفع . يسلاها : يلساها ، ويرى البيت هكذا :

والعين أسرابٌ ، إذا ما ذكرتها

وللقلب وسواس إذا العين ملَّت

(٥) اعترافه : اصطباره . ذلت : خضعت واستسلمت وأطاعت .

- وإني وتَهَيَّامي بعزّة بعدما
تخلّيتُ مما بيننا وتخلّت (١)
لكالمرجحي ظلّ الغمامة ، كلما
تبرّأ منها للمقبل اضمحلّت (٢)
كأنّي وإيّاها سحابةٌ ممحلّة
رجاها ، فلما جاوزتهُ استهلّت (٣)
فإن سأل الواشون فيم هجرتها
فقلّ نفسٌ حرٌّ سليّتْ فتسلّتْ (٤)

-
- (١) التهيّام : شدة الهيام والمشق بما يشبه الجنون . تخلّت : تركت .
(٢) تبرّأ المكان : اتخذته للإقامة . اضمحلّت الغمامة : انقشعت
وزهدت .
(٣) سحابة ممحلّة : سحابة بلد ممحل (المحلّ: الجذب وانقطاع المطر
وخلوّ الأرض من الكلأ) استهلّت : أمطرت وصبت ماءها .
(٤) الحرّ : الكريم ذو الإنفة . سليّت : أخذت تسلو أي تنسى .

وأمرت لأولاً

ليزيد بن معاوية

وهذه قصيدة فاتنة ، عنيت بها كتب البلاغة العربية ،
لامتلائها بالصور والتشبيهات والاستعارات التي يتذوقها
الدارسون على أنها نماذج لبلاغة التعبير الأدبي. والقصيدة تذهبها
كتب التراث العربي ليزيد بن معاوية بين ما ينسب له من
مقطوعات شعرية أخرى . ولئن صدقت هذه النسبة ، لكننا
إزاء شاعر أصيل مطبوع ، له أسلوبه الشعري المتميز ،
وطرائقه في التعبير ، وعنايته بالصور الطريفة المبتكرة ، تلك
التي هام بها البلاغيون والبديعيون استشهاداً وتحليلاً وتمثيلاً .
ولا نظن أن كتاباً من كتب البلاغة العربية يخلو من هذا
البيت الشعري المأثور ، يستشهد به على تتابع الاستعارات
والصور الشعرية :

وأمرت لأولاً من نرجس وسقت
ورداً ، وعضت على العناب بالبرد

وكثيراً ما نلكتنا الدهشة والغرابة لهذا الشاعر الذي
افتنّ في وصف حبيبته وهي تبكي وتنتحب ، فصور دموعها
لؤلؤاً ، وعينها نرجساً وخديها ورداً ، وشفتيها عُنَّاباً ،
وأسنانها بَرَدَاً .. وكل هذه الصور المجتمعة قد جاءت في بيتٍ
واحداً ... فتأملوا !

وإذا صح أن الشاعر هو يزيد بن معاوية ، فهو إذن ثاني
خلفاء بني أمية ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه معاوية ، وهو الذي
أمر عبد الله بن زياد وإلى الكوفة بمحاربة الحسين وأتباعه
فهزمهم في كربلاء ، وقتل الحسين في المعركة .. وبمقتله
استتب الأمر للأمويين في دمشق ، واستقرت خلافتهم فيها ،
وبدأوا يلتفتون إلى ما أحاط حياتهم من رفاهية ونعيم ، وحياة
رغدة تليق بأهل القصور ..

لهذا نجد في شعر يزيد هذا الجوّ المترف ، وهذه الصور
الطيّعة لمن شب في رفاهية العيش ونعيمه وهناءته ، ورقّة
الطبع التي لا يؤتاها إلا من عمرت نفسه ببهاج الحياة ومتعها ،
وأصبح الحب لديه صورة مُنغمة مطرزة ، يفتنّ في إكسابها
شئى الألوان والسمات .. يقول في إحدى قصائده :

خذوا بدمي ذاتَ الوشاحِ ، فإنني
رأيت بعيني في أناملها دمي
ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها
بلى ، خبروها بعد موتي بتأمتي

ثم يقول :

ولما تلاقينا ، وجدت بنانها
مخضبة تحكي عصاره عندهم

فقلت : خضبت الكف بعدي ، هكذا
يكون جزاء المستهام المتيم !

فقلت وأبدت في الحشا حرق الجوى
مقالة من في القول لم يتبرم

وعيشك ما هذا خضاباً عرفته
فلا تك بالبهتان والزور متهمي

ولكنني لما رأيتك نائياً
وقد كنت لي كفي وزندي ومعصي

بكيت دماً يوم النوى ، فمسحته
بكفتي ، وهذا الأثر من ذلك الدم

فهذا عاشق لا يستوقفه إلا الخضاب على أنامل محبوبته ،
فيدبر معها هذا الحوار المترف - يذكرنا بما يدور من حوارات
ناعمة بين أهل القصور - ويختتمه بتوضيح سبب هذا الخضاب ،
فقد بكت المحبوبة عليه دماً يوم فراقه ، فلما أرادت مسح
هذا الدم بكفها تخضبت أناملها .. فهي لم تتزين قط بعد
رحيله حزناً عليه ، لكن دمها هو الذي يصبغ أناملها .

والعاشق هنا عاشق أمير ، المحبوبة هي التي تبكي عليه
غداة نأيه وبُعده ، بعد أن كان لها الكفّ والزند والمعصم ،
وهي لا تبكي عليه دموعاً ولكنها تبكي عليه دماً ، من شدة
ما تحمله له من حب ووجد وتبريح ، فانظروا أي نعم وترف
وتدلل !

يبقى أن نلتقي بالقصيدة التي شاعت شهرتها منسوبة إلى
يزيد ، وأن نشبع فضولنا بالتعرف على أبياتها الجميلة ، ذات
العاطفة الرقيقة المترفة ، عاطفة أبناء القصور ، وأصحاب
الترف والنعم ..

يقول يزيد بن معاوية :

نالت على يدها ما لم تنله يدي
نقشاً على معصم أو هت به جَلَدِي^(١)
كأنه طَرَقُ نَمَلٍ في أناملها
أو روضة رصَّعَتْها السحب بالبرد^(٢)

(١) أو هت به جلدي : أضعفت قدزقي على التحمل .

(٢) الأنامل : جمع أنملة : طرف الإصبع أو رأس الإصبع . البَرَد :
ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد ويسقط على الأرض في صورة حبات .

وقوسٌ حاجبها من كلِّ ناحية
ونبَلٌ مقلتها ترمي به كبدي (١)
مدَّت مواشطها في كفِّها شركاً
تصيد قلبي به من داخل الجسد
أنيسةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت
من بعدِ رؤيتها يوماً على أحدٍ
سألها الوصلَ قالت : لا تُفَرِّ بنا
مَنْ رام منّا وصلاً مات بالكدرِ
فكم قنيلٍ لنا بالحب مات جوى
من الغرامِ ، ولم يُبْدِ ولم يُعِدِ
فقلتُ : أَسْتَغْفِرُ الرَّحْمَنَ مِنْ زَلَلِ
إنَّ الحبَّ قليلُ الصبرِ والجَلَدِ
قد خلَّفْتَنِي طريحاً وهي قائلة :
تأملوا كيف فِعَلَ الظَّيِّ بِالْأَسَدِ (٢)
قالت لطيفٍ خيالٍ زارني ومضى :
بالله صفه ، ولا تنقص ولا تزدِ

(١) النبَل : السهام .

(٢) الظَّيِّ : الغزال .

فقال : خلقتُهُ لو ماتَ من ظمأٍ
وقلتِ : قف عن ورود الماء، لم يَرِدِ !
قالت : « صدقتَ ، الوَفا في الحب شيمته »
يا بَرْدَ ذاك الذي قالت على كبدي !^(١)
واسترجعت سألت عني ، ففيل لها :
ما فيه من رَمَقٍ ، دَقَّتْ يدا بيدٍ
وأمرت لؤلؤاً من نرجسٍ ، وسقت
ورداً ، وعضت على العنّاب بالبرْدِ^(٢)
وأنشدت بلسان الحال قائلةً
من غير كُرٍّ ولا مَطْلٍ ولا مددٍ^(٣)
والله ما حزنت أختٌ لفقد أخٍ
حزني عليه ، ولا أمٌ على ولدٍ
إن يحسدوني على موتي ، فوا أسفي
حق على الموت لا أخلو من الحسدِ

(١) شيمته : خلقه وطبيعته .

(٢) العنّاب : واحدته عنابة ، فاكهة من فصيلة النبقيات ، تشبه
حبة الزيتون ، وأجوده الأحمر الحلو . والمقصود به شفتا المحبوبة . أما
البرْد فالمقصود به أسنانها الناصعة البياض .

(٣) المطل : التسويف والتأخير .

(فؤز)

للعباس بن الأحنف

من أجل ما يروونه عنه أنه خرج مع الرشيد ذات مرة
إلى خراسان ، وكان الرشيد قد وعده أنه لن يغيب عن أهله
في بغداد ، لكن الغياب طال ، فاشتد به الشوق إلى أهله ،
واحتال هو بأبيات تصل إلى سمع الرشيد لعله يأمر له بالعودة:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثمّ القُفُولُ ، فقد جئنا خراسانا
مضى يكون الذي أرجو وآمله
أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يدني - على شَحَطٍ -
جيران دجلة من جيران « جيحانا » (١)

(١) ويروي البيت أيضاً : سكان دجلة من سكان جيحانا .

يا ليت من نتمنى عند خلوتنا
إذا خلا خلوة يوماً تمنانا
وتصل الأبيات إلى سمع الرشيد ، فيتأثر بها غاية التأثر ،
ويأذن لشاعره العباس بن الأحنف بالعودة إلى بغداد ..

رواية أخرى طريفة حكاها المسعودي في كتابه « مروج
الذهب » عن جماعة من أهل البصرة ، قال :

خرجنا نريد الحج ، فلما كنا ببعض الطريق ، إذا غلام
واقف على المحجة وهو ينادي : أيها الناس ، هل فيكم أحد من
أهل البصرة ؟ قال : فعدلنا إليه ، وقلنا له : ما تريد ؟

قال : إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم . فلما معه ، فإذا
شخصٌ ملقى على بعدٍ تحت شجرة لا يحير جواباً ، فجلسنا
حوله فأحسن بنا ، فرفع رأسه وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً ،
وأنشأ يقول :

يا غريب الدارِ عن وطنه
مفرداً يبكي على شجنه
كلما جدَّ البكاء به
دبت الأسقام في بدنه

ثم أغمي عليه طويلاً ، فبينما نحن جلوس حوله إذ أقبل
طائر فوق على الشجرة وجعل يفرد ، ففتح عينيه وجعل
يسمع تغريد الطائر ثم أنشأ يقول :

ولقد زاد الفؤاد شجاً
طائرٌ يبكي على فَنَنِهِ
شفه ما شفني ، فبكي
كلنا يبكي على سكنه !

قال : ثم تنفس نفساً فاضت نفسه منه ، فلم نبرح من عنده
حتى غسلناه وكفناه وتوليننا الصلاة عليه ، فلما فرغنا من دفنه
سألنا الغلام عنه فقال هذا العباس بن الأحنف .

* * *

فإذا تركنا هذه الروايات عن العباس وما أكثرها، وانتقلنا
إلى ديوان شعره لفت نظرنا أنه ديوان كامل من شعر الحب ،
لا مكان فيه لأي غرض آخر من الأغراض التقليدية التي كانت
مألوفة في شعرنا العربي القديم ، إنه شاعر لا يمدح ولا يهجو
ولا يرثي ولا يفخر ، هو شاعر عاشق ، وعاشق فحسب ،
شهد له البحاري بأنه أغزل الشعراء ، وقصائده في حبيبته
فوز تنطق بعاطفة صادقة ، وشاعرية أصيلة ، ولغة شعرية
عذبة سائغة لا تكلف فيها ولا تصنع ، تنساب إلى الناس
رقية صافية ..

يقول العباس عن أميرته :

أَمِيرَتِي ، لَا تَغْفِرِي ذَنْبِي
فَإِنْ ذَنْبِي شَدَّةُ الْحُبِّ

حدثت قلبي دائماً عنكم
حتى قد استحييت من قلبي

وَيَصِفُ زَمْنَ الْعَاشِقِ ، وَوَقَعَ سَاعَاتِهِ وَأَيَّامَهُ وَشَهْرَهُ فِي
فِي النَّفْسِ ، فَمَقُولُ :

اليومُ مثلُ العامِ، حتى أرى
وجهك، والساعة كالشهرِ

ماذا على أهلك أن لا يروا
عطراً ، وأنت العطر للعطر

أفسد قلبي شادن "أحور"
بسحر بالعنين والثغـر

لو كنت أدري أنه ساحرٌ
علقتُ نعوذاً من السحر

ويبدع حين تصطرع في نفسه رغائب الحب وشهواته مع ما ينبغي له من تعفف ووقار ، فيقول عن النظر الفاسق :

أتأذنون لصبّ في زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضرّ سوء إن طال الجلوس به
عفّ الضمير ولكن فاسق النظر
ويقول العباس بن الأحنف عن العسيان الجميل ، العسيان
بالحب :

أستغفر الله إلاّ من مودتكم
فإنها حسناي يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية
فالحب أحسن ما يُعصى به الله !

يلفت النظر في شعر العباس بن الأحنف موسيقاه الآسرة ،
وإذا كان القدماء قد وصفوا الأعشى بأنه صنّاجة العرب ،
فإن العباس جدير بأن يسمّى صنّاجة الشعر العربي في العصر
العباسي كله ، لما تميّز به شعره من إيقاعات موسيقية عذبة
مطرّدة ، وأجراس حلوة متناغمة وسلاسة تجعل لشعره وقعا
طيبا في النفس والعقل معا ..

ثم يلفت النظر في شعره أيضاً ، هذه الشخصية المواصلّة
الطريفة ، شخصية الشاعر ، وهي دائمة الحوار والأخذ والرد ،

والقصّ والسرد ، والتذكير - خلال القصائد - بأحداث
مضت وذكريات وقعت وأيام تقضت ، مما يضيف على هذه
القصائد جواً واقعياً ، وإطاراً من الصدق ، يجعل النفس أكثر
تقبلاً لها وانفتاحاً عليها ، وهو في قصائد حبه جميعها دائم
التصريح بالشكوى ، دائم الأمل في الوصال ، دائم الاستعطاف
عن ذنب لا يدره ، دائم الحديث عن كتمان لم يستطعه ،
فداع الحب وشاع وتناقلته الوشاة والخواسد ..

وواضح من سيرة العباس بن الأحنف أنه رافق هارون
الرشيد في حملاته على خراسان وأرمينيا ، وأنه كان رقيق
الحاشية لطيف الطباع ، مفطوراً على الحب والغزل ، حتى لقد
جعل شعره كله قصيدة حب متصلة ، وتقول كتب التراث إنه
توفي سنة مائة واثنين وتسعين من الهجرة وقيل بل سنة مائة
وأربع وتسعين ، وإن يوم وفاته كان يوم وفاة إبراهيم الموصلي
نديم الخلفاء والكسائي النحوي المعروف وهشيمة بن الخمار
فلما رفع الأمر إلى الرشيد أمر المأمون أن يصلي عليهم ، فأمر
المأمون بتقديم العباس بن الأحنف ليصلي عليه أولاً ، فلما سئل
عن سبب تقديمه له على الآخرين أنشد المأمون من شعره :

وسمى بها ناس فقالوا إنها
لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنتهم
لاني ليمجيني الحب الجاحد

ثم قال : أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة ؟

والآن مع قصيدته « فوز » :

فوز

ألم تعلمي يا « فوز » أني معذب
بجكم ، والحين للمرء يجلب^(١)
وقد كنت أبكيكم بيثرب مرة^٢
وكانت منى نفسي من الأرض يثرب^(٢)
أؤملكم حق إذا ما رجعتمو
أثاني صدود^٣ منكمو وتجنب
فإن ساءكم ما بي من الصبر ، فارحموا
وإن سرّكم هذا العذاب ، فعذبوا
فأصبحت فيما كان بيني وبينكم
أحدث^٤ عنكم من لقيت فيعجب

(١) الحين : الهلاك .

(٢) يثرب : الاسم القديم للمدينة المنورة .

وقد قال لي ناس تحملُ دلالها
فكلُّ صديق سوف يرضى ويفضُّبُ
ولاني لأقلِّي بذل غيرك فاعلمي
وبخلك في صدري ألدُّ وأطيب (١)
فلاني أرى من أهل بيتك نِسوةً
شبينَ لنا في الصدر ناراً تلهب (٢)
عرفن الهوى منّا فأصبحن حسداً
يُخبِرن عنا من يحيي ويذهب
ولاني ابتلاني الله منكم بخادم
يبلِّغكم عني الحديث ويكذب
ولو أصبحت تسمى لتوصل بيننا
سعدت، وأدركت الذي كنت أطلب
وقد ظهرت أشياء منكم كثيرة
وما كنت منكم مثلها أترقب

(١) أقلِّي : أبغض وأكره . بذل غيرك : عطاء غيرك ووصاله .

(٢) شبين : أوقدن وأشعلن .

عرفت بما جرّبتُ أشياء جتّة
ولا يعرف الأشياء إلا المُجربُ

* * *

ولي يوم شيعت الجنّازة قصة
غداة بدا البدر الذي كان يحجب
أشرتُ إليها بالبنان فأعرضت
تبسمُ طَوَّراً ثم تزوي فتقطب (١)
غداة رأيتُ الهاشمية غدوة
تهادى حواليتها من العين ربرب (٢)
فلم أرَ يوماً كان أحسن منظراً
ولحن وقوف وهي تنأى وتندب (٣)
فلو علمت « فوز » بما كان بيننا
لقد كان منها بعض ما كنت أُرهب

(١) البنان : طرف الاصبع . تزوي فتقطب : تزوي ما بين حاجبيها
علامة الغضب والاستياء .

(٢) الربرب : القطيع أو السرب من بقرة الوحش ، والمقصود به هنا
سرب من الحسان . العين : جمع عينا ، وهي البقرة الوحشية (كانت
العرب تشبه الحسان بها بلالها) .

(٣) تنأى : تبعد .

ألا جعل الله الفدا كلَّ حُرَّة
 « لفوز » المنى إنَّني بها لمعذبُ
 فما دونها في الناس للقلب مطلبُ
 ولا خلفها في الناس للقلب مذهب (١)
 وإن تك « فوز » بأعدتنا وأعرضت
 وأصبح باقي حَبْلِها يتقضَّب (٢)
 وحالت عن العهد الذي كان بيننا
 وصارت إلى غير الذي كنت أحسب (٣)
 وهان عليها ما أُلَاقِي فربَّما
 يكون التلاقي والقلوب تقلَّب (٤)
 ولكنني والخالق الباري الذي
 يزارُ له البيت العتيق المحجب
 لأستسكن بالودِّ ما ذرُّ شارق
 وما ناح قمرِي وما لاح كوكب (٥)

-
- (١) مذهب : سبيل أو مذهب .
 (٢) يتقضَّب : يتقطع . حبلها يتقضَّب : أي يذهب ما بيني وبينها
 من ودِّ وعبة .
 (٣) حالت : تغيرت وتبدلت .
 (٤) تقلَّب : تتغير وتتبدل من حال إلى حال .
 (٥) ذر : بزغ ولح ولاح . شارق : أي لجسم في السماء . قمرِي :
 قمر من الحمام حسن الصوت .

وأبكي على فوز بعين سخينة
 وإن زهدت فينا ، نقول : سترغب^(١)
 ولو أن لي من مطلع الشمس بكرة
 إلى حيث تهوى بالعشي فتغرب
 أحيط به ملكاً ، لما كان عدوها
 لعمرك .. إني بالفتاة لمعجب^(٢)

وقد استطاعت الشاعرة العراقية الدكتورة عاتكة الخرزجي - في رسالتها للدكتوراه عن العباس بن الأحنف - أن تكشف النقاب عن سرّ محبوبته فوز ، وأن تثبت أنها غُلية بنت المهدي أخت هارون الرشيد ، وأن العباس لم يستطع أن ييوج باسمها في شعره ، فرمز لها باسم «فوز» .

(١) سخينة : الباكية بالدموع الحارة .
 (٢) عدوها : كفؤاً لها ومساوياً لقيمتها ومعبراً عن تقديرها وإعزازي لها .

[وحيد المغنية]

لابن الرومي

وهذه مغنية خلدها شاعر .

أما المغنية فهي « وحيد » أشهر مغنيات العصر العباسي وأبعدهن صيتاً وأكثرهن جمالاً وفتنة ، اجتمع لها الصوت الرخيم والحسن البديع ، فتمت صورتها على أحسن وجه لمن يرى ولمن يسمع ..

وأما الشاعر فهو ابن الرومي ، أشعر شعراء العصر العباسي كله ، وإن يكن أقل الشعراء حظاً من عناية التاريخ الأدبي وإنصاف النقاد والدارسين قدامى ومحدثين ، حتى كان الكتاب الذي ألّفه عنه الأديب الراحل عباس محمود العقاد دراسة منهجية نفسية جامعة ، وضعت في مكانه من مسيرة الشعر العربي ، وأنصفت من عدّة التاريخ وتجاهل المتأدبين .

وصلت لنا صورة ابن الرومي - الشاعر الفذ - في إطار من لوحاته الشعرية البارة وقصائده المثلثة فناً ذكياً وحياة

متدفقة ، وكان أقصى ما تقوله عنه كتب الأدب إنه شاعر
هجاء لم يسلم أحد من لسانه ، برع في وصف الأمور الدنيا
للحياة وشؤونها السوقية ، ألا ترون ابن المعتز - الخليفة
الشاعر - وهو يصف الهلال بأنه زورق من فضة قد أثقلته
حمولة من عنبر ، بينما يقنع ابن الرومي بوصف خباز يتفنن في
صنع رقاقتة على النار :

ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ويروى البيت الثاني على هذه الصورة أيضاً :

إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في بؤة الماء يلقي فيه بالحجر

ولهذا ، فقد بقي ديوان ابن الرومي حق يومنا هذا ، في
صورته الكاملة ، شبه مفقود أو مفتقد ، اللهم إلا بضعة فصول
منه حققها ونشرها الأديب الراحل كامل كيلاني ، بالرغم من
أنه - كما يقول الرواة - أطول ديوان محفوظ في الشعر العربي
كله ، لكن إهمال القدماء له وحنقهم عليه وضيقهم بهجائه
المقذع - الذي يحتل مساحة غير يسيرة من الديوان - فضلاً
عن أن نسخة الديوان الكاملة لم تكن ميسورة في بعض البلاد

العربية التي كان لها قصب السبق في إعادة طبع بعض الدواوين وتحقيقها - كل ذلك جعل شعره غير مجموع بين أيدينا حتى اليوم .

يقول ابن خلكان يصف ابن الرومي ويقدره : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يترك فيه بقية » .

ويقول عنه العقاد : « الطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بيّنة للإحساس بحوائج الحياة المختلفة . وتنام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحي عن الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفي فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان .

ثم يقول :

« وابن الرومي واحد من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومي الإنسان حقّ عرفانه ولم ينقصه منه إلا الفضول ، والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يُعرف

بعد وإن عُرفت له مزايا وثالث حسنات له حقها من
الإعجاب » .

* * *

وُلد أبو الحسن علي بن العباسي بن جريج الرومي سنة
إحدى وعشرين ومائتين من الهجرة ، من أصل رومي غير
عربي ، فجدّه جريج أو جورجيس : يوناني ، وأمه من أصل
فارسي ، أما أبوه فقد مات عنه وهو حدث صغير .

ويقولون إن حياته اكتنفها الشقاء واليأس والهَمُّ من كل
جانب ، فقد رزق ابن الرومي ثلاثة أبناء ماتوا جميعاً في
طفولتهم ، ورثاهم بأبلغ وأفجع ما رثى به والد أبنائه ، ثم
لحقت بهم زوجته فتَمَّت بها مصائبه وأحزانه .

والذين يحاولون أن يقدموا له صورة وصفية يقولون إنه
كان صغير الرأس مستدير أعلاه ، أبيض الوجه يخالط لونه
شحوب في بعض الأحيان وتغيّر ، ساهم النظرة ، باديأ عليه
وجوم وحيرة .. نحيلاً ، أقرب الى الطول ، كث اللحية ،
بادر إليه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة
الباكرا فاعتلّ جسمه وضعف نظره وسمعه ، ثم ما لبث - في
شيخوخته - أن تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق به
ملا بد أن يلحق بثله من تغيير نتيجة الأسقام والهجوم
وقوالي الهن .

ويؤخذ من الروايات الموثوق بها أنه توفي سنة أربع وثمانين ومائتين من الهجرة ، وأنه أدرك في حياته ثمانية خلفاء من بني العباس هم : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد ابن الرومي ببضع سنوات. والمتصفح لأشعار ابن الرومي - وما أكثرها وأحفلها بسمات العبقرية والتفنن - يدرك على الفور أنه كان شاعراً محباً للحياة ، منغمساً في ظواهرها وجوهرها ، ملتقطاً لكل ما فيها من صور وأشكال ، مشغصاً لمعانيها ومدركاً لها ، وكانت عبادة الجمال - وهو أسمى تعبير عن الحياة - دأبه وديدنه .

* * *

هذا النهم بعبادة الجمال ، وحب الحياة ، هو الذي جعله يهوى مغنية عصره الذائعة الصيت ، الفاتنة الجمال ، ويهيم بها ورجداً وعشقا ، وترتجف بهذا الحب ريشته الساحرة الملهمة ، فيفتن في رسم لوحته الشعرية الفريدة عن « وحيد » .

والقصيدة واحدة من عيون قصائده، تنطق بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيم والتجسيد ، والاستقصاء البارع اليقظ في تناول أدق التفاصيل ، وذائته المتفردة كشاعر ، تلك التي تتفجر بها كلماته وموسيقاه وقوافيه .

ويصل ابن الرومي إلى ذروة الإبداع الشعري عندما يرسم بريشته المقتدرة صورة وصفية لوحيد وهي تغني ، هنا نجد

لونساً من التناول الشعري لا مثيل له في شعرنا العربي كله ،
بينما يرسم الشاعر العاشق كل خالجة من خواجها وكل حركة
من حركاتها الصوتية هدوءاً وانطلاقاً ، بسطاً وقبضاً .

وفي ختام هذه اللوحة الشعرية الفاتنة ، يكشف ابن الرومي
النقاب عن مدى حبه لوحيد ، وعمق تعلقه بها ، فهو لا يستمع
لنصيح يلومه في هواها ، بعد أن تملكه هذا الهوى وسد عليه
كل الاتجاهات والأبعاد : عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه ..
فأين منه المفر ؟

لأنه حب من طراز فريد .. فهو حب دائم التجدد ،
دائم المنح والعطاء .

* * *

يقول ابن الرومي :

نار الحسن :

يا خليلي ، تيمّنتني وحيب
ففؤادي بها معني عيّد^(١)

(١) تيمّنتني : ملكتني وأسرّني بحبها . المعنى : الذي يكلف بما
لا قبل له به . العيّد : من هدّد العشق وأضناه الحب .

غادة^١ زانها من الغصن قد^٢
ومن الظبي مقلتان^٣ وجيد^٤
وزهاها من فرعها ومن الحد^٥
ين ، ذاك السواد والتوريد^٦
أوقد الحسن نارَه في وحيد^٧
فوق خد^٨ ما شأنه^٩ تخديد^{١٠}
فهي برد^{١١} بخدها وسلام^{١٢}
وهي للعاشقين جها^{١٣} جهيد^{١٤}
لم تضر^{١٥} قط وجهها وهو ماء^{١٦}
وتذيب^{١٧} القلوب^{١٨} وهي حديد^{١٩}
ما لما تصطليه من وجنتها^{٢٠}
غير ترشاف ريقها^{٢١} تبريد^{٢٢}
مثل^{٢٣} ذاك الرضاب أطفأ ذاك^{٢٤} الـ
وجد^{٢٥} ، لولا الإناء^{٢٦} والتصريد^{٢٧}

-
- (١) القد : القوام . الجيد : العنق . مقلتان : عينان .
(٢) فرعها : شعرها . التوريد : الاحرار .
(٣) تخديد : اضطراب وتشنج ناتج عن الهزال .
(٤) لم تضر : لم تؤذ .
(٥) تصطليه : تعاني من حرارته .
(٦) التصريد : العجز عن بلوغ الري لقله ما يرقى به .

وصف وحيد :

وغريه بحسبها قال : صفها !
قلت : أمراة ، هيئن وشديد
يسهل القول إنها أحسنُ الأشياءِ
مِ طرّا ، ويعسرُ التحديد (١)
شمسُ دجنٍ ، كلا المنيرين - من شم
سِ وبدري - من نورها يستفيد (٢)
تتجلى للناظرين إليها
فشقي بحسبها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعاً
ها ، وقريّة لها تغريد (٣)

وحيد وهي تغني :

تتغني ، كأنها لا تغني
من سكون الأوصال ، وهي تجيد

(١) طرّا : جميعاً .

(٢) دجن : ظلام .

(٣) قريّة : حمامة حسنة الصوت .

لا تراها هناك ، تجحظُ عينُ
 لك منها ، ولا يدرُ (١) ويريدُ
 من هدوٍ ، وليس فيه انقطاع
 وسُجُوٍ ، وما به تبليد (٢)
 مدث في شأور صوتها نَفَسٌ كا
 في ، كأنفاسٍ عاشقها مديد (٣)
 وأرقّ الدلالُ والغنجُ منه
 وبراهُ الشّجا ، فكاد يبيد (٤)
 فتراه يموت طوراً ويحيا
 مستلذّ بسيطه والنشيد
 فيه وشيٌ ، وفيه حلّني من النفث
 سم مصوغٌ يخال فيه القصيد (٥)
 طاب فوها وما 'ترجّع' فيه
 كلُّ شيءٍ لها بذاك شهيد (٦)

-
- (١) يدرُ الوريد : يتلى دماً نتيجة المجهود والشقة .
 (٢) السُجُوُ : السكون واللبونة .
 (٣) شأور صوتها : قيمة صرتها وعظمته .
 (٤) الغنج : الدلال . الشجا : الحزن وانشغال البال .
 (٥) وشي : حلية وتزيين .
 (٦) فوها : فها . ترجع : تعيد التردد .

تَغَبُّ ينقعُ الصدى ، وغناءً
 عنده يوجدُ السرور الفقيد^(١)
 فلها - الدهر - لائمٌ مستزیدُ
 ولها - الدهر - سامعٌ مستعیدُ
 في هوى مثلها يخفُّ حلیمُ
 راجحٌ حلمه ، ويغوى رشید^(٢)
 ما تعاطي القلوب إلا أصابت
 بهواها منهنَّ حيث تريد
 وتزُ العزفِ في يديها مضاهٍ
 وتَرَ الرَّجْفِ فيه سهمٌ شديد
 وإذا أنبضته للشربِ يوماً
 أيقن القوم أنها ستصيد^(٣)
 « معبدٌ » في الغناء وابن « سريج »
 وهي في الضرب « زلزل » و « عقيد »^(٤)

-
- (١) التغبب : الغدير البارد الماء لم تصبه الشمس . ينقع الصدى : يبلُ العطش ويروي الظمأ .
 (٢) يخف : يطيش عقله .
 (٣) الشرب : جمع شارب . أنبضته : سدده .
 (٤) معبد : وابن سريج وزلزل وعقيد : من مشاهير المغنين والعازفين في العصر العباسي .

عيبها أنها إذا غنتِ الأحرار
رَ ظَلُّوا وُهمٌ لديها عيبُ
واستزادت قلوبهم من هواها
بر'قامها ، وما لديهم مزيد (١)

التوحيد في الحب :

وحسان عرض لي ، قلت : مهلاً
عن وحيد ، فحقها التوحيد
حسنها في العيون حسنٌ وحيدٌ
فلها في القلوب 'حبٌ وحيدٌ
ونصيح. يلومني. في هواها
ضلٌ عنه التوفيق والتسديد
لو رأى من يلوم فيه لأضحى
وهو لي المسترث والمستزيد
ضلّةٌ للفؤاد يحنو عليها
وهي تزهو - حياته - وتكيد (٢)

(١) رقى : جمع رقية ، ما له تأثير السحر .

(٢) ضلة : منية وأمل .

سحرته بمقلتيهـــــــــــــــــا فأضحت
 عنده والذمير منهاـــــــــــــــــا حميد
 'خلقت فتنة' ، غناءً وحسناً
 ما لها فيها جميعاً نديد^(١)
 فهي 'نعمى' ، يمدُّ منها كبيرُ
 وهي بلوى ، يشيب منها وليد^(٢)
 لي - حيث انصرفتُ منها - رفيقُ
 من هواها - وحيث حلَّت قعيدُ
 عن يميني ، وعن شمالي ، وقُدَّ
 مي وخلفي ، فأين عنه أحميد
 سدُّ شيطان حبِّها كلُّ فجٍّ
 إنَّ شيطان حبِّها لمريد^(٣)

(١) نديد : مثيل ونظير .

(٢) يمد : يزلزل ويهتز .

(٣) فج : طريق . مريد : الحبث الشرير .

جمال صوت وصورة :

ليت شعري إذا أدام إليها
كرة الطرف ، مبدئ ، ومُعِيد^(١)

أهي شيء لا تسأم العين منه ؟
أم لها كل ساعة تجديد

بل هي العيش لا يزال متى استه
رض يُبلي غرائباً ويفيـد

منظرٌ ، مسمعٌ ، معانٍ من اللّه
و ، عتادٌ لما يحبّ عتيد^(٢)

لا يدبّ الملal فيها ، ولا ينقـد
ض من عَقْد سحرها توكيد

حسنها في العيون حسنٌ جديد
فلها في القلوب حبٌ جديد

(١) كرة الطرف : إعادة النظر والتأمل .

(٢) عتاد : زخيرة ومتاع .

شكوى واستعطاف :

أخذ الدهر يا وحيد لقلبي
منك ، ما يأخذ المديـل المعيد ^(١)
حظٌ غيري من وصلكم قرّة العـيـد
نـ ، وحظّي البكاء والتسـيـد
غير أني مُعلل منك نفسي
بعـداتٍ خلاهن وعيـد ^(٢)
ما تزالين نظرةً منك موتٌ
لي ميتٌ ، ونظرةً تخلـيـدٌ
نتلاقى ، فلحظةً منك وعدٌ
بوصال ، ولحظةً تهـديـدٌ
قد تركتِ الصّباح مرضى يـمـيـد
نَ "لحولاً" وأنتِ خـوْطٌ يـيـد ^(٣)

(١) المديـل : المغيّر القلب الأحوال .

(٢) عدات : جمع عدة ، وعد أو أمنية .

(٣) خـوْط : الغصن الناعم .

والهوى لا يزال فيه ضعيف
بين الحاظيه صريع^(١) جليد
ضافني حبك الغريب ، فألوى
بالرقاد النسيب^(٢) ، فهو طريد^(٣)
عجباً لي ، إنَّ الغريب مقيم
بين جنبي^(٤) ، والنسيب شريد^(٥)
قد مللنا من ستر شيءٍ مليح
نشته ، فهل له تجويد^(٦) !
هو في القلب ، وهو أبعد من نج
مـ الثريّا ، فهو القريب البعيد !

* * *

-
- (١) جليد : ذو صلابه وجَلَد .
(٢) ضافني : أمانني واستهدفتني . ألوى به : ذهب به وعصف به .
(٣) تجريد : انكشاف وظهور .

أراك عصي الدمع

لأبي فراس الحمداني

وهذا نموذج للشعر العربي الأصيل إذا ما صدر عن وجدان عاشق فارس ، يعتزُّ بنسبه العربي العريق ، الذي ينتهي إلى قبيلة « تغلب » العربية التي اشتهرت بالنخوة والفروسة ، وتسري في عروقه دماء عربية أصيلة جعلته دائماً الفخر والاعتزاز بنفسه ومكانته ، ولم لا ؟ ، وهو الشاعر الفارس الأمير وابن عم الأمير سيف الدولة أمير حلب ، أشهر أمير عربي خلّده شاعر العربية الكبير « المتنبي » في سيفياته التي قالها وهو في جواره ، يصف وقائع ، ويسجل أحداث زمانه .

ذلك هو أبو فراس الحمداني ، وُلد بالموصل سنة تسعمائة واثنين وثلاثين ميلادية ، وقتل أبوه وهو طفل صغير ، فرباه ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة ، وهو الفارس الأديب ، فنشأ أبو فراس على للفروسة والأدب ، ثم قلده سيف الدولة الإمارة

على «منبج وحران» وأعمالها وهو في السادسة عشرة من عمره واصطحبه معه في معاركه ، وما كان أكثرها ، مع الروم الطامعين في الوطن العربي الذي تفتت وانقسم بالخلال الدولة العباسية وانقسامها على نفسها الى إمارات ومناطق نفوذ . وقدر لدولة الحمدانيين ولسيف الدولة أن يكونا القلعة الوحيدة الصامدة في وجه الدولة البيزنطية ، وأن يكونا الدرع الواقية للشعور العربية في مواجهة أعظم دول ذلك الزمن .

ويؤسّر أبو فراس في إحدى معارك سيف الدولة مع الروم ، وينقله الروم إلى القسطنطينية ، ويظلّ في الأسر أربع سنوات ، ويقال بل هي سبع سنوات ، وتوالت رسائله لسيف الدولة، وقصائده الباكية المستعطفة يطلب فيها مفاداته . ويختلف المؤرخون في سبب بطله سيف الدولة وتراخيه في مفاداته . يقول البعض هي شواغله ومسؤولياته والأحداث المتتالية التي مرت بها حلب ، والبعض الآخر يحاول أن يوحى بأنه كانت هناك منافسة خفية بينه وبين سيف الدولة ، وأن سيف الدولة كان يخشى على إمارته من ابن عمه ، وهو رأي لا تقوم عليه شواهد أو أدلة قوية ، وثمة من يقول إن بلاط سيف الدولة شهد مؤامرة دبرها بعض الحاقدين على أبي فراس أوغرت صدر سيف الدولة عليه فلم يسرع إلى مفاداته ..

على أيّ ، لقد أطلق سراح أبي فراس بعد أن افتداه ابن عمه ، وولاه سيف الدولة إمارة حمص ، ثم مات بعد عا.

واحد . وفجأة قامت الحرب بين أبي فراس وأمير حلب الجديد : أبي المعالي بن سيف الدولة .. وابن أخت أبي فراس نفسه .. وتنتهي الحرب بمقتل أبي فراس قرب حصص سنة تسعمائة وثمانين وستين ، وينتهي معها طموحه وفخره وفروسيته ..

* * *

ولأبي فراس ديوان من الشعر القوي الجزل،العذب الأنغام، الصادق العاطفة والتصوير ، يسجل فيه تاريخ حياته ويصور فروسيته ويفخر بماثر أسرته ، ويثني على سيف الدولة والعلويين .. ومن بين قصائده هذا الديوان اشتهرت روميته أي القصائد التي قالها وهو في الأسر، وهي تكشف عن مدى شكواه وعمق حزنه ورثائه لأقربائه الذين فقدهم أثناء الأسر والغياب عن الوطن خاصة أمه .

لكن قصيدة من قصائد أبي فراس يتاح لها من الذبوع والشهرة ما لا يتاح لبقية قصائده ، تلك هي مطولته « أراك عصي الدمع » التي تصوّر أدق تصوير وجدان هذا الشاعر الفارس، الذي يذوب رقة وعاطفة ولكن في اعتزاز وشموخ ، ومن خلال نفس أبية ترفض كل ذلة ، ولا تعرف إلا الإباء والجرأة والإقدام . فالشاعر الذي يذوب وجداً وهياماً في مواقف الحب والصبابة ، لا يحني رأسه ، ولا يدوس على كرامته ، لكنه دائماً شامخ أبي ، شأنه في حروبه ومعاركه

مع الخصوم والأعداء .. هذه القصيدة التي اشتهرت عندما
دخلت ساحة الغناء العربي، ورددها الألوف ، معجبةً بعاطفة
الشاعر الفارس ، وكبريائه وشعده ، وفنه الشعري المقتدر ،
وصياغته العذبة القوية .. هي التي سنتوقف عندها الآن ،
قراءةً وتذوقاً وتأملًا ..

* * *

يقول أبو فراس الحمداني ..

استهلال وتقديم :

أراك عصيُّ الدمعِ شيمتك الصبرُ
أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرٌ (١)
بلى ، أنا مشتاقٌ وعندِي لوعةٌ
ولكنٌ مثلي لا يذاع له سرُّ
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذلتُ دمعاً من خلّائه الكبيرُ (٢)

(١) شيمتك : طبعك وخلقك .

(٢) أضواني : عذّبتني وشجاني . خلّائه : جمع خليقة وهي الطبع
والصفة المميزة .

تكاد تضيء النار بين جوانحي
إذا هي أذكتها الصباة والفكر^(١)
معلّني بالوصل والموت دونه
إذا بتُ ظمآنًا فلا نزل القطر^(٢)
حفظتُ وضِيعتِ المودّة بيننا
وأحسنُ من بعض الوفاء لك الغدر
وما هذه الأيام إلا صحائف
لأحرفها ، من كف كاتِبها ، بشرُ

هي والوشاة :

بنفسي من الغادين في الحيّ غادة
هواي لها ذنبٌ ، وبهجتها عُذرُ
تروغ إلى الواشين فيّ ، وإن لي
لأذناها عن كلّ واشيةٍ وقر^(٣)

(١) أذكتها : أشعلتها .

(٢) معلّني بالوصل : من تبسط لي الآمال في الوصل . القطر : المطر .

(٣) تروغ : تميل وتستمتع . وقر : صمم .

بدوتُ وأهلي حاضرون ، لأنني
أرى أن داراً لست من أهلها قفر^(١)
وحاربتُ قومي في هوالِكِ ، ولأنهم
ولإيائي ، لولا حبك ، الماء والخمر
فإن يك ما قال الوشاة ولم يكن
فقد يهدم الإيمان ما شيد الكفر

بين الشاعر والحبيبة :

وفيتُ وفي بعض الوفاء مذلة^١
للإنسانة في الحى شيمتها الغدر^(٢)
وقور^٢ ، وريمان الصبا يستفزها
فتأرن^٣ أحياناً كما أرن^٣ المهر^(٣)

-
- (١) بدوت وأهلي حاضرون : اختلقت حياتي عن حياة قومي ،
انصرفت عنهم وملت اليك .
(٢) شيمتها : طبيعتها وخلقها .
ويرى البيت أيضاً : « لفاتنة » في الحى شيمتها الغدر .
(٣) أرن : نشط ومرح .

تسألني : مَنْ أنت ؟ وهي عليمة
 وهل بفقّ مثلي على حاله 'نكسر'
 فقلت لها : لو شئت لم تتعنتي
 ولم تسألني عني ، وعندك بي خبر (١)
 فقالت : لقد أزرى بك الدهر بعدنا
 فقلت : معاذ الله بل أنت لا الدهر (٢)
 وما كان للأحزان لولاك مسلك
 إلى القلب ، لكنّ الهوى للبيلى جسر
 وتهلك بين الهزل والجدّ مهجة
 إذا ما عداها البين عذّ بها الهجر (٣)
 فأيقنتُ أن لا عزّ بعدي لعاشق
 وأنّ يدي بما علقتُ به صفر (٤)
 وقلّبتُ أمري لا أرى لي راحة
 إذا البين أنساني ألحّ بي الهجر

(١) التعنت : طلب المشقة .

(٢) أزرى به : عابه ووضع من قيمته ومزله .

(٣) البين : الفراق والبعد .

(٤) صفر : خاوية فارغة .

فعدت إلى حكم الزمان وحكمها
لها الذنب لا تجزى به ولي العذر

فغفر واعتزاز بالنفس :

فلا تنكريني يا ابنة العم ، إنه
ليعرف من أنكرته البدو والحضر

ولا تنكريني ، إنني غير منكسرة
إذا زلّت الأقدام ، واستنزل الذعر

وإني لجرار لكل كتيبة
معوّدة أن لا يخلّ بها النصر

وإني لنزال بكل غوفة
كثير إلى نزالها النظر الشزُر^(١)

فأظمأ حق ترقوي البيض والقنا
وأسغب حق يشبع الذنب والنسر^(٢)

ولا أصبح الحي الخلوف بفارة
ولا الجليش ، ما لم تأتته قبلي النذر

(١) النظر الشزُر : النظر بجانب العين مع الاعراض أو الغضب .

(٢) البيض : السيوف . القنا : الرماح . أسغب : أجوع .

ويا ربّ دارٍ لم تخفني منيعه
طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ

وحَيّ رددت الخيل حق ملكته
هزيمًا ، وردّتي البراقع والخمر^(١)

وساجبة الأذيال نحوي لقيتها
فلم يلحقها جافي اللقاء ولا وعر

وهبتُ لها ما حازه الجيش كله
ورحت ولم يكشف لأبياتها سر

ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى
ولا بات يثني عن الكرم الفقر^(٢)

وما حاجتي بالمال أبغي وفوره
إذا لم أصن عرضي فلا وفر الوفر

(١) الخمر : جمع « خمر » وهو غطاء الرأس للمرأة .

(٢) يثني : يرؤي ويدفعني .

قصة الأسر :

أسرتُ وما صحبي بمُؤلٍ لدى الرغى
ولا فرسي مهرٌ ولا رثه غنمٌ (١)
ولكن اذ احتم القضاء على امرئٍ
فليس له برٌ يقيه ولا بحر
وقال أصبحابي : الفرار أو الردى ؟
فقلت : مما أمان أحلاما مرء
ولكنني أمضي لما لا يعينني
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
يقولون لي ربت السلامة بالردى
فقلت : أما والله ، ما قالني خسر
وهل يتجافى عني الموت ساعة
إذا ما تجافى عني الأسر والضرء ؟
هو الموت فاختر ما علا لك ذكره
فلم يمت الإنسان ما حيي الذكر

(١) المؤل : جمع أعزل ، الذي لا سلاح معه . الغنم : الجاهل ،
غير الحرب .

ولا خير في دفع الردى بمذلة
صكها ردها يوماً بسوءته عمرو^(١)
ينثون أن خلّوا ثيابي ، وإنما
عليّ ثيابٌ من دماهمو حمز
وقائمٌ سيفٍ فيهمو اندقّ نصله
وأعقاب رمحٍ فيه قد حطّم الصدر

عودة إلى الفخر :

سيدكرني قومي. إذا جدّ جدّهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
فإن عشتُ ، فالطعن الذي يعرفونه
وتلك القنا والبيض والضمير الشقر^(٢)
وإن متُّ فالإنسان لا بد ميّت
وإن طالت الأيام وانفسح العمر^(٣)

(١) السوءة : الفعلة القبيحة التي تجلب المذلة والعار .

(٢) القنا : الرماح . البيض : السيوف . الضمير الشقر : الجياد
الضامرة الشقراء اللون، كناية عن سرعتها الفائقة وكرم عنصرها .

(٣) انفسح العمر : امتدّ الأجل .

ولو سدّ غيري ما سددت اكتفوا به
وما كان يفلو التبر لو نفق الصفر^(١)
ونحن أناس لا توسّط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر^(٢)
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن يخطب الجسنا لم يفلها المهر .
أعزّ بني الدنيا وأعلي ذوي العلا
وأكرم من فوق التراب ولا فخر^(٣)

* * *

-
- (١) التبر : الذهب . الصفر : النحاس .
(٢) الصدر : الصدارة والرئاسة والسيادة .
(٣) من فوق التراب : الناس جميعاً .

يا ظبيّة البان

للشريف الرضي

لا يذكر الشريف الرضي إلا ويسرع إلى البال قوله :

ولقد مررتُ على ديارهمو
وطلولها بيد البلى نهبُ

فوقفت حتى ضجُّ من كَلَبٍ
نِضوي ، ولجَّ بعذلي الرُّكَب

وتلفَّت عيني ، فذ خفيت
عني الطلول تلفَّت القلب

ويستحضر الخيال هذه الصورة الفريدة في شعرنا العربي القديم ، صورة من يمرّ على آثار أحبائه بعد رحيلهم ، وتختفي الطلول من أمام عينه ، ولا تستطيع العينان أن تريا بعد شيئاً ، هنا يتلفّت القلب ، فتتمد دائرة البصر ، ويبصر القلب بعد أن عجزت العينان .

والشريف الرضي أحد الأصوات الكبيرة في قافلة شعرنا العربي ، صوت له تفردته وأصالته وتمايزه ، وله أيضاً جلاله وجماله وعذوبته وتدفعه ، واقتداره الفني الذي يتكبد على حس مرهف ، ووجدان ذكي ، وقلب كبير متفتح .

تقول عنه كتب التراث إنه كان مهيباً بالغ الاعتداد بشخصيته ، وكنيته أبو الحسن ، وقد سمي الشريف الرضي لأنه كان نقيب الأشراف ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي ابن أبي طالب ، وهو صاحب الفضائل الشائعة والمكارم الذائعة . كما كانت تسند إليه إمارة الحج والمظالم ، حج بالناس مرات ، وكان أحد علماء عصره في الدين واللغة والأدب .

ويقول عنه القدماء إنه أشعر قريش ، لأن المجيد منهم ليس بكثير والمكثر ليس بمجيد ، أما هو فقد جمع بين الإكثار والإجادة .

ونطالع في شعره ما يملؤنا يقيناً بأنه كان عزيز النفس رفيع الهمة .. يقول مخاطباً القادر بالله الخليفة العباسي (ولنضع في اعتبارنا أن الشريف الرضي كان نقيب الطالبين نسبة إلى آل طالب المطالبين بالخلافة) :

عطفاً ، أمير المؤمنين ، فإننا
 في دوحة العلياء لا نتفرق
 ما بيننا يوم الفخار تفاوت
 أبداً ، كلانا في المفخر مفرق
 إلا الخلافة قدّمته ، فإنني
 أنا عاطلٌ منها وأنت مطوّق

'ولد الشريف الرضي عام ثلاثمائة وتسعة وخسين من
 الهجرة ، وتوفي عام أربعمائة وستة . وخلال سنوات عمره
 السبع والأربعين، ترك الشريف ديواناً شعرياً ضخماً في جزأين،
 ومصنفات عدة ، أبرزها : المتشابه في القرآن . مجازات
 الآثار النبوية . نهج البلاغة للإمام علي . تلخيص البيان عن
 مجازات القرآن . الخصائص . الحسن من شعر الحسن (مختارات
 من شعر ابن الحجاج) . أخبار قضاة بغداد . ورسائل الشريف
 الرضي في ثلاثة مجلدات . وكتاب سيرة والده .

أما كيف ترك لنا نقيب الأشراف ، ونقيب الطالبين
 الشريف الحسين شعراً في الغزل كأرقّ وأعذب ما يكون
 الشعر ، فهذا سؤال تكشف إجابته عن حقيقة هذا الشاعر
 الكبير الذي لم يطمس النشاط الديني والشيوعي شاعريته أو
 فنه .. ولكأنني به يتفنن في إخفاء عواطفه ومشاعره
 - حفاظاً على مكانته الدينية ومنزلته بين قومه - فيأبى

شعره إلا أن يفضحه ، ويكشف الخفي المستور من أسراره
وهواجس نفسه ونبضات قلبه ، وإلا فكيف قدر له أن
يقول عن حقيقة الشوق :

أقول - وقد أرسلتُ أول نظرة -
ولم أرَ من أهوى قريباً إلى جنبي
لئن كنتَ أخليتَ المكان الذي أرى
فهبّاتُ أن يخلو مكانك من قلبي
وكنتُ أظنُ الشوق للبعد وحده
ولم أدر أن الشوق للبعد والقرب
خلا منك طرفي ، وامتلا منك خاطري
كأنك من عيني نُقلت إلى قلبي

وكيف استطاع أن يعبر عن « الحنين » في هذه الصورة
الشعرية الفريدة ، العذبة الصياغة ، الجميلة الجرس والأداء :

أحنُّ إلى لقائك كل يومٍ
وأسأل عن إيابك كل وقتٍ
وأذكر ما مضى ، فيفيض صبري
وتنفر عبرتي ، ويبوح صمتي
ولي قلب إذا ذكر التـسـلاقي
تظلم من يد البين المشت

بل كيف ذاب رقة ووجدأ حين قال :

يا مقلقي ، قلقي عليـكا
وأظنـه ذنبي إليـكا

أنت الشفيق فلو جنـب
ت ، لما أخذت على يديـكا

أمسيتَ ثالث ناظريـ
فكيف أقـذى ناظريـكا

وكفـاك أني لست أعـد
سـقدُ خـنـصري إلا عليـكا

والمأمل في شعر الشريف يلاحظ على الفور حرصه على تأكيد معنى العفاف في غزليته ، وإن تكن رغبات نفسه الدفينة وأشواقه الحرة ، وعواطفه الجامحة المشبوبة ، تتنـزى من خلال تحفظاته ، وكيف ينسى أنه أمير الحج ونقيب الأشراف والقاضي الذي ينظر في المظالم والمرشح لإمارة المؤمنين ... كيف ينسى هذا كله وهو ينقل إلينا مثلاً حديث المضاجع فيقول :

خلونا فكانت عفة لا تعفف
وقد رُفعت في الحي من الموانع

سلوا مضجعي عني وعنهما ، فإننا
رضينا بما يُخبرن عنا المضاجع

وُلد الشريف الرضي بعد وفاة أبي الطيب المتنبي بخمس
سنوات ، وتلقى دراساته الأولى على أيدي أساتذة شديدي
الإعجاب بالمتنبي، ولم يشهد في صباه أو شبابه حلقة من حلقات
الدرس أو محفلاً من محافل الأدب إلا ولس فيه الإعجاب
بالمتنبي والحديث عن شعره، ومن هنا كان إعجابه الداخلي به،
وترسمه لخطاه ، واقتفاؤه لآثاره ، ثم معارضاته لأشهر
قصائده ، ووقوعه على الكثير من معانيه وعباراته ، ولكن
في خفة وذكاء ورشاقة ، ودون أن يُتَّهم بالسرقة أو النقل .

بالإضافة إلى هذا ، يطالعنا في شعر الشريف أيضاً صياغة
نقية ، مصقولة ، خالية من الشوائب ، بريئة من التكلف ،
ويقول القدماء إنه كان عاكفاً على تهذيب شعره وتنخل ألفاظه
وصيانة ديباجته من عيوب التعبير أو سقطات اللغة أو ضحالة
المعاني وركاكة الصور وابتذالها . فجاء شعره - على كثرته -
مستوياً ، مماثل القمم والمرتفعات ، معبراً عن حياته المليئة
بالانفعالات والعواطف والمواقف المشحونة ، لذا كثر شعره في
الأنفحة والفروسية والطموح والتمدح بشرف الآباء والفخر
بأجداده العظام والشكوى والعتاب ، والحب والغزل ،
والبكاء على الأهل والأحبة، ووصف تقلبات الزمان الى ذكرى

الحسين في مأساة عاشوراء ، إلى عاطفة الصداقة فيما كان بينه وبين أصدقائه من الإخوانيات العامرة الحارة .

ويكفيه فخراً ، أنه من بين القلة القليلة من شعرائنا العرب ، الذين لم يقبلوا المال من أحد ، ولا اتخذوا شعرهم وسيلة أو أداة للتكسب المادي ، فكانت علاقاته مع الخلفاء والملوك والأمراء علاقات ود وصداقة ، واحترام متبادل ، لذا فقد عرفت له عندهم حرمة وهيبة ، ولقبوه بالرضي ذي الحسينين .

والآن إلى قصيدته الرقيقة : يا ظبية البان .

يا ظبية البان

يا ظبيّة البان ، ترعى في خائله
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك^(١)
الماء عندك مبدول لشاربه
وليس يرويك إلا مدمعي الباكي

(١) البان : شجر معتدل القوام ورقه ليّن كالصفصاف ، واحدى البانة . ليهنك : ليهنك ، خففت الهمزة .

هبت لنا من رياح « الغور » رائحة
 بعد الرقاد عرفناها برياًك^(١)
 ثم اثنتين إذا ما هزنا طرب
 على الرحال ، تعللنا بذكراك
 سهم أصاب ، وراميه بذبي سلم ،
 من بالعراق ، لقد أبعدت مرماك^(٢)
 حكمت لحاظك ما في الرثم من ملح
 يوم اللقاء ، وكان الفضل للحاكي^(٣)
 كأن طرفك يوم « الجزع » يخبرنا
 بما طوى عنك من أسماء قتلاك^(٤)
 أنت النعيم لقلبي والعذاب له
 فما أمرك في قلبي وأحلاك
 عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها
 لولا الرقيب لقد بلّغتها فاك

-
- (١) الغور : اسم موضع ، أو هو المنخفض من الأرض . الريا :
 الريح الطيبة .
 (٢) بذبي سلم : اسم موضع .
 (٣) اللحاظ : جمع لحظ ، باطن العين . الرثم : الظلي الأبيض .
 حكمت : أشبهت .
 (٤) طرفك : عينك . الجزع : اسم موضع .

وعد لعينيك عندي ما وفيت به
 يا قرب ما كذبت عيني عيناك
 سقى مني وليالي «الحيف» ما شربت
 من الغمام وحيّاها وحيّاك (١)
 إذ يلتقي كل ذي ذن .. وماطله
 منا ، ويجتمع المشكوك والشاكي (٢)
 لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا
 ما كان فيه غريم القلب إلاك (٣)
 هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
 من أعلم العين أن القلب يهواك
 حق دنا البين ما أحييت من كمد
 قتلى هواك ، ولا فاديت أسراك
 يا حبذا نفحة مرّت بفيك لنا
 ونظفة غشت فيها ثناياك (٤)

(١) الحيف : واد بين منى ومكة .

(٢) ماطله : مسوّفه ومؤجّله .

(٣) السرب : سرب الغطاء ، أي الحسان . يعطو : يرفع رأسه ويديده . الأرحل : جمع رحل ، ما يوضع على الناقة ليمتطيه المسافر .

(٤) النظفة : الماء الصافي أو الرحيق الرضاب .

وحبذا وقفة والركب معتقل
على ثرىّ وخدت فيه مطاياك^(١)
لو كانت اللمة السوداء من معدّدي
يوم الفميم ، لما أفلت أشراكي^(٢)

-
- (١) معتقل : لا يستطيع السير لأث مطاياہ معتقلة ، أي مشدودة
الرأس الى الذراع . وخدت : سارت .
- (٢) اللمة السوداء : الشعر الأسود ، كناية عن الشباب . الفميم :
راد بين الحرمين قرب مكة .
- يقول : لو كان الشباب عدّة لي لما تركتك تفلتين من حبالي .

اليتمية

لدوقلة المنبجي

طالعتها لأول مرة في أحد مجلدات مجلة « الحديقة » التي
كان يصدرها منذ أكثر من نصف قرن العالم الراحل 'محب' الدين
الخطيب .. وقد صُدرت بهذه الكلمات : « القصيدة اليتيمة »
نقلها العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي من آخر
نسخة مخطوطة من المقامات توجد في الهند ، . واستوففتني
القصيدة ، ثم ما لبثت أن مَلَكْتُ عليّ نفسي ، وإن كان السؤال
الملحّ وقتها عليّ : من هو دوقلة المنبجي هذا ، الذي تنسب
إليه القصيدة اليتيمة ؟

وظللت بعد ذلك سنوات متصلة ، تطالعي - بين الحين
والحين - أبيات من اليتيمة أجدها منتثرة هنا وهناك في أمهات
كتب الأدب ، ومختارات الشعر العربي ، لكن العثر عليها
كاملةً ظل شيئاً يشبه المستحيل ، خاصة - كما عرفت فيما بعد -

أن بالقصيدة مقاطع أُضيفت إليها ، بفعل الروايات والنقل ،
بها ما يחדش الحياء ويحرج الذوق العام ..

لكن الذي لم يختلف عليه اثنان ، أن القصيدة من عيون
تراثنا الشعري .. وأن القدماء لما أدركوا جمالها وروعها
وأصالتها وتفردا أطلقوا عليها اسم « اليتيمة » أي التي
لا شبيه لها ولا نظير .

والطريف أن اليتيمة ظلت عصوراً طويلة مجهولة النسب ،
لا يُعرف اسم شاعرها الحقيقي .

فمن قائل هو الشاعر العباسي علي بن جبلة ، الذي قتله
المأمون في أول القرن الثاني الهجري ..

ومن قائل : هو أبو نواس ، الشاعر العباسي الكبير ، الذي
اشتهر بالخريات والهجون ، وأصحاب هذا الرأي يؤكدون أن
القصيدة تحمل بصمات فنه وشاعريته .

ومن قائل : بل هو دوقلة المنبجي ، وهو شاعر لم تتحدث
عنه كتب الأدب ، ولا يُعرف له شعرٌ سواها . أما « منبج »
هذه التي ينتسب إليها الشاعر فهي بلدة بالشام نشأ فيها من
الشعراء : أبو تمام والبحثري وأبو فراس الحمداني وغيرهم من
أعلام الشعر والبيان . والطريف أيضاً أنهم اختلفوا في اسم
القصيدة :

فهي « اليتيمة » ، وهي « هند » ، وهي « دعد » ..

ثم جاء هذا الكشف عن مصدر القصيدة وحقيقة نسبتها وأصلها الكامل - كما نشرته مجلة الحديقة - ليحسم الأمر ، وينسب القصيدة إلى صاحبها ..

وهكذا لم تعد « اليتيمة » يتيمة النسب !

و « اليتيمة » تنطق بشاعرية شاعر أصيل مقتدر ، تفتن في وصف محبوبته « دعد » ، فلم يترك شيئاً منها ، إلا وقد وصفه أدق وصف وأجمله ، وكأنه يقدم صورة للجمال كما تعشقه العربي القديم ، وحتى ليخيل لقارئ القصيدة أنه يتأمل لوحة فائنة أبدعتها ريشة رسام مبدع .

رسم الشاعر في لوحته الفاتنة جسم محبوبته ، ووجهها ، وشعرها ، وجبينها ، وجيدها ، وزندها ، ومعصمها ، وغداثرها ، وكل نبضة من نبضاتها ، ولم يفتئ أن يصف ذهوله وإطراقه أمام هذا المشهد الرائع من مشاهد الحب والجمال ، وأن يتحدث عن أنفته وعزته وكبرائه حين يعزُّ عليه الوصال وكأنه بذلك يقدم لنا مثل الفارس العربي النبيل يذوب في هواء صبايةً ووجداً ، ولكنه يرفع عزّة وإباء وشموخاً ، ويحل نفسه عن ارتكاب الدنايا والصغائر .

والقصيدة - رغم التزامها في بنائها العام للمنهج التقليدي

للقصيدة العربية بدءاً بالوقوف على الأطلال ثم الحديث عن موضوع الحب وصفاً وشكوى ووجداً ، ثم انتهاءً بالفخر بالنفس وتأكيده معنى العزة والنخوة - إلا أن ما ينسكب عليها من ماء الشعر يجعلها بالغة الرقة والعذوبة ، ويعمل لها مذاقاً خاصاً في وجدان المتلقي ينأى به عن تصورها حبيسة هذا البناء التقليدي ، بما تتكشف عنه القصيدة من تصورات رغبة للخيال والحس العربي العاشق .

والآن إلى اليتيمة :

وقوفٌ على الأطلال :

هل بالطلول لسانٍ ردُّ
أم هل لها بتكلمٍ عهدٌ (١)
درّس الجديدُ ، جديدٌ معهدا
فكأنما هي ربطة جرد (٢)

(١) الطلول : جمع طل ، هي ما يتخلف من الآثار والديار بعد زوالها .

(٢) درس : زال وأحى . معهدا : ما عهد فيها من آثار الحياة والاقامة . ربطة جرد : أي مُلادة بالية أو ثوب مهترىء .

من طول ما تبكي الغيوم على
 عَرَصَاتِهَا ، ويقهقه الرعد^(١)
 وتلثُ ساريةً وغاديةً
 ويكرُّ نحسٌ خلفه سعد^(٢)
 تلقاءً شاميةٍ يمانية
 لهما بموَرٍ تراها سرُّد^(٣)
 فكست بواطنها ظواهرها
 نوراً كأن زهاء برد^(٤)
 فوقفتُ أسألها ، وليس بها
 إلاّ المها ونفاقى رُبد^(٥)
 فتبادرت درر الشئون على
 خدّي كما يتناثر العقد^(٦)

-
- (١) عرصاتُها : ساحاتها .
 (٢) تلث : تدرم وتستمر أياماً . السارية والغادية : السحب المطيرة .
 (٣) موَر تراها : إثارة تراها وتحريكه بشدة . سرُّد : تتابع .
 الشامية واليانية : أسماء للسحاب المطر بحسب اتجاه قدمه .
 (٤) الزهاء : النضرة . البرد : الثوب المخطط .
 (٥) المها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . النفاقى : جمع نفاقى :
 ذكر النعام . رُبد : لونها يختلط فيه السواد بكدره .
 (٦) درر : جمع درة ؛ ما يدر من المطر واللبن ، والمراد هنا بدرر
 الشئون : دموع العينين النهمرة .

صورة وصفية للمحبوبة :

لهفي على « دعد » وما حفلت
 بالأبحر تلهفي « دعد »
 بيضاء قد لبس الأديم بها
 الحسن، فهو لجلدها جلد^(١)
 ويزين فودئها إذا حسرت
 ضافي الغدائر فاحم جعد^(٢)
 فالوجه مثل الصبح مبيض
 والشعر مثل الليل مسود
 ضدان لما استجمعا حسنا
 والصد يظهر حسنه الصد
 وكأنها وسنتى إذا نظرت
 أو مدنف لما يفتق بعد^(٣)
 بفتور عين ما بها رمد
 وبها تداوى الأعين الرمد

(١) الأديم : الجلد .

(٢) الغدران : جانباً الرأس مما يلي الأذن . جعد : متجمع كثيف
 والمقصود به (الشعر) .

(٣) وسنتى : أخذها النوم الشديد . المدنف : من ثقل عليه المرض .

وتُربِكِ عِرنيناً يَزينُه
 . شَمَمٌ ، وخِداءٌ لونه الورد (١)
 وتَجِيلُ مِسواك الأراكِ على
 رتلٍ كأن رضابَه الشهد (٢)
 والصدر منها قد يَزينُه
 نهدٌ كحقِّ العَاجِ إذ يَبْدُو
 والمعصانِ ، فما يُرى لهما
 من نَعمَةٍ وبِضاضَةٍ زَند
 ولها بَنان لو أَرَدتْ لَه
 عَقداً بِكفِّكَ أَمَكنَ العَقد
 وكأَنما سُقِيتْ تَرائِبُها
 والنَحرُ ماءَ الوردِ إذ تَبْدُو (٣)
 وبِصَدْرَها حَقَّانِ خَلَّتِها
 كافورَتينِ عَلاما نَدُّ (٤)

-
- (١) العرنين : الأنف . الشمم : الترفع والكبرياء .
 (٢) الرتل : الفم الجميل الأسنان في بياض ولعان . الرضاب :
 المقصود به ماء الفم .
 (٣) الترائب : عظام الصدر . النحر : أعلى الصدر .
 (٤) الندب : عود طيب الرائحة يتبخر به .

والبطن مطويّ كما طويت
 بيضُ الرِّياط يصونها المُلْدُ (١)
 وبخصرها هيف يزينه
 فإذا تنوءُ يكاد ينقدُ (٢)
 ولها هنُّ رابٍ بحسّته
 وعر المسالك ، حشوه وقد
 فإذا طعنْتَ طعنْتَ في لبدٍ
 وإذا نزعت يكادُ ينسدُّ (٣)
 والتفُّ فخذاهما ، وفوقهما
 كفل - يجاذب خصرها - نهد (٤)
 فقيامها مشى إذا نهضت
 من ثقله ، وقعودها فرد
 والساقُ خرعبة منعمة
 عبلت فطوق الحجل منسدُّ (٥)

-
- (١) الرِّياط: جمع رِبطة وهي الملاءة . الملد: جمع ملدء : المرأة الناعمة .
 (٢) الهيف : ضمر البطن ورقة الخاصرتين . تنوء : تنهض يجهد
 ومشقة - تسقط . ينقد : ينكسر .
 (٣) اللبد : الشعر الكثيف المتجمع . وهذا البيت والبيت السابق
 يقال لِنِهَا دَخِيلَانِ عَلَى الْقَصِيدَةِ .
 (٤) الكفل العجز أو الردف . نهد : البارز المرتفع .
 (٥) خرعبة : الطويلة الناعمة . عبلت : اكتنزت وضخمت .

والكعب أدرم لا يبين له
حجم^(١) ، وليس لرأسه حد^(٢)
ومشت على قدمين مُخَصَرًا
والتفتنا ، فتكامل القد^(٣)
ما عابها طول ولا قِصَر
في خلقها ، فقوامها قصد^(٤)

الشكوى من الحجر والصدود :

إن لم يكن وصل لديك لنا
يشفي الصبابة ، فليكن وعد^(١)
قد كان أورق وصلكم زمناً
فدوى الوصال وأورق الصد^(٢)
لله أشواقى إذا نزحت
دار بنا ، وطواكمو البعد

(١) أدرم : عظمه لا يبين من كثرة طه اللين الأملس .

(٢) القد : القوام .

(٣) قصد : سوي معتدل ليس به طول أو قصر .

(٤) الصبابة : شدة الوجد والهيام .

(٥) أورق وصلكم : طاب وصالكم وواتى رأيكم .

إن تنهمي فتهامة وطني
أو تنجدي، يكن الهوى نجداً^(١)
وزعمت أنك تضررين لنا
ودأ ، فها ينفع الود !
وإذا المحب شكا الصدود ولم
يمطف عليه فقتله عمد
تختصها بالود ، وهي على
ما لا نحب ، فكذا الوجد !

فخر وكبرياء :

أو ما ترى طمري بينهما
رجل ألح بهزله الجد^(٢)
فالسيف يقطع وهو ذو صدأ
والنصل يعلو الهام لا الغمد^(٣)

(١) ان تنهمي أو تنجدي : أن تنتسبي الى تهامة أو نحد .

(٢) طمري : مثني طمر، وهو الثوب البالي .

(٣) الهام : جمع هامة ، الرأس .

هل تنفعن السيف حليته
يوم الجلال إذا نبا الحد^(١)
ولقد علمت' بأنني رجل'
في الصالحاتِ أروح' أو أغدو
سلم' على الأدنى ومرحمة'
وعلى الحوادث هادن بجلد'^(٢)
متجلبب ثوب العفاف وقد
غفل الرقيب وأمكن الورد'^(٣)
وبجانب' فعل القبيح ، وقد
وصل الحبيب ، وساعد السعد
منع المطامع أن تثلثني
أنّي ليعولها صفاً صلد'^(٤)
فأروح' حرّاً من مذلتها
والحرّ حين يطيمها عبداً

(١) نبا : زاغ ولم يعصب .

(٢) هادن : ساكن . جلد : صبور قوي .

(٣) الورد : الوصال والارتواء من الحب .

(٤) تثلثني : تخرجني وتعييني . صفا : جمع صفاة : الصخرة أو الحجر الضخم . الصلد : الصلب القوي .

آليت أمدح 'مقرفاً' أبداً
يبقى المديح وينفد الرّفد^(١)
هيهات ، يأبى ذاك لي سلفاً
خمدوا ولم يخمد لهم مجد
والجدُّ كينْدَة والبنون همو
فزكا البنون وأنجب الجدُّ^(٢)
فلئن قفوت جميل فعلهمو
بذمير فعلي ، إنني وَاغْدُ^(٣)
أجل إذا حاولتَ في طلبٍ
فالجدُّ يُغني عنك لا الجدُّ^(٤)

نداء أخير :

ليكن لديكِ لَسَائِلَ "فَرَجٍ"
أو لم يكن .. فليحسن الردُّ !

(١) مقرفاً : غنياً ، كثير اقتناء المال . الرّفد : العطاء .

(٢) زكا : أفلح ونجح .

(٣) قفوت : تيمت .

(٤) أجل : اعتدل ولا تفرط . الجدُّ : الحظ .

قمر في بغداد

لابن زريق البغدادي

وهذا شاعرٌ قتله طموحه ، يعرفه دارسو الأدب ومُحبُّوه ،
لكنهم لا يعرفون له غير هذا الأثر الشعري الفريد يتناقله
الرواة ، وتُعنى به دواوين الشعر العربي . فإذا ما تساءلنا
عن الشاعر ، وعن سائر شعره فلن نظفر من بين ثنايا الصفحات
بغير بضعة سطور تحكي لنا مأساة الشاعر العباسي ابن زريق
البغدادي الذي ارتحل عن موطنه الأصلي في بغداد قاصداً بلاد
الأندلس ، علَّه يجد فيها من لين العيش وسعة الرزق ما يُعوضه
عن فقره ، ويترك الشاعر في بغداد زوجةً يحبها وتحبُّه كل
الحب ، ويخلص لها ويخلص له كل الاخلاص ، من أجلها يهاجر
ويسافر ويغترب . وفي الأندلس - كما تقول لنا الروايات
والأخبار المتناثرة - يجاهد الشاعر ويكافح من أجل تحقيق
الحلم ، لكنَّ التوفيق لا يصاحبه ، والحظ لا يبتسم له ، فهناك
يمرض ، ويشند به المرض ، ثم تكون نهايته في الغربة .

ويضيف الرواة بُعْداً جديداً للأساسة ، فيقولون إن هذه القصيدة التي لا يُعرف له شعر سواها وجدت معه عند وفاته سنة أربعمائة وعشرين من الهجرة ، يخاطب فيها زوجته ، ويؤكد لها حبه حتى الرمق الأخير من حياته ، ويترك لنا - نحن قراءه من بعده - 'خلاصة' أمينة لتجربته مع الغربة والرحيل ، من أجل الرزق ، وفي سبيل زوجته التي نصحته بعدم الرحيل فلم يستمع إليها ، ثم هو في ختام قصيدته نادم - حيث لم يعد ينفع الندم أو يجدي - متصدع القلب من لوعة وأسى ، حيث لا أنيس ولا رفيق ولا معين .

والتأمل في قصيدة ابن زريق البغدادي لا بدَّ له أن يكتشف على الفور رقة التعبير فيها ، وصدق العاطفة ، وحرارة التجربة . فهي تتمُّ عن أصالة شاعر مطبوع له لفته الشعرية المتفرّدة ، وخياله الشعري الوثاب ، وصياغته البليغة المرهفة ، ونفسه الشعري الممتد . والغريب ألا يكون لابن زريق غير هذه القصيدة ، مثله كمثل دوقلة المنبجي الذي لم تحفظ له كتب تراثنا الشعري غير قصيدته « اليتيمة » .. وهكذا استحقَّ الشاعران فضل البقاء والذكر - في ذاكرة الشعر العربي كله - بقصيدة واحدة لكل منهما .. وبالمقابل ، ما أكثر الشعراء الذين لا تعيهم ذاكرتنا ، بالرغم من أنهم سوّدوا مئات الصفحات وتركوا عشرات القصائد وزحموا الدواوين والمكتبات .

يستهلّ ابن زريق قصيدته بمخاطبة زوجته ، يناشدها ألا
تعذله أو تلومه ، فقد أثر فيه اللوم وآذاه ، وأضرّ به بدلاً
من أن ينفعه ، إنه هنا يبسط بين يديها أسباب رحيله عنها
وتركه لها طمعاً في الرزق الفسيح والعيش الهانيء الوثير ،
وسرعان ما يعلن عن ندمه لأنّ ما أمله لم يتحقق ، وما رجاء
من رزق وفير لم يتح له ..

ثم يلتفت ابن زريق التفاتةً محبّة عاشق إلى بغداد ،
حيث زوجته التي تركها دون أن يستمع إلى نصحتها ، إنها
مملكته التي أضاعها ولم يحسن تدبيرها وعرشه الذي خلع عنه ..
وفي ختام القصيدة ، يصف ابن زريق - في تعبير صاف
مؤثر ونسيج شعريّ محكم - واقع حاله في الغربة ، بين
الأسى واللوعة ، والألم والندم ، وهنا ينفس المجال التأمّل ،
وينطلق اللسان بالحكمة التي أنضجتها التجربة ، ويشرق القلب
بالدموع .

* * *

يقول ابن زريق البغدادي :

رفقا به بدلاً من لومه :

لا تعذليه ، فإن العذل يولمه

قد قلت حقاً ، ولكن ليس يسمعه^(١)

(١) لا تعذليه : لا تلوميه .

جاوزتِ في لومه حداً أضرَّ به
 من حيث قدرتِ أن اللوم ينفعه
 فاستعملي الرفق في تأنيبه ، بدلاً
 من عذله ، فهو مضنى القلب موجهه
 قد كان مضطرباً بالخطب يحمله
 فضيقت بخطوب الدهر أضلعه
 يكفيه من لوعة التشتيت أن له
 من النوى كلَّ يوم ما يروعه (١)
 ما آبَ من سفر إلا وأزعجه
 رأي إلى سفرٍ بالعزم يزعمه (٢)
 كأنما هو في حلٍّ ومرتحل
 موكلٌ بفضاء الله يذرعه (٣)

لماذا رحل :

إنَّ الزمان أراه في الرحيل غنى
 ولو إلى السدِّ أضحى وهو يزعمه (٤)

(١) النوى : الفراق والبعاد .

(٢) آب : رجع .

(٣) موكل : معنى ومسئول . يذرعه : يقطعه . الحل والمرتحل : الإقامة والرحيل .

(٤) يزعمه : يعتزمه وينتويه .

وما مجاهدة الإنسان توصله
رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه (١)
قد وزع الله بين الخلق رزقهم
لم يخلق الله من خلق يضيعه
لكنهم كلّفوا حرصاً ، فلست ترى
مسترزقاً ، وسوى الغايات تقنعه (٢)
والحرص في الرزق - والأرزاق قد قسمت -
بنفي ، ألا إن بنفي المرء يصرعه
والدهرُ يعطي الفقى - من حيث يمنعه -
إرثاً ، ويمنعه من حيث يطعمه

كيف كان الوداع :

أستودعُ الله في بغداد لي قرأً
«بالكرخ» من فلك الأضرار مطلعته (٣)

(١) المجاهدة : مواجهة المصاعب والشدائد . الدعة : الأمان والسكون والاطمئنان .

(٢) كلّفوا حرصاً : أطعمهم الحرص والرغبة في المزيد .

(٣) الكرخ : اسم موضع في بغداد . من فلك الأضرار : من بين ثنايا الثوب الذي يرتديه .

ودّعته وبودّي لو بودّعي
 صفو الحياة ، وأني لا أودّعه
 وكم تشبّث بي يوم الرحيل ضحىً
 وأدمعي مستهلات وأدمعه (١)
 لا أكذب الله ، ثوب الصبر 'منخرق'
 عنّي بفرقة ، لكن أرقّعه
 إني أوسع عذري في جنايته
 بالبين عنه ، وجُرّمي لا يوسّعه (٢)
 رُزقت 'ملكاً' فلم أحسن سياسته
 وكلُّ من لا يسوس الملك يخلّعه
 ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا
 شكرٍ عليه ، فإن الله ينزعه

غربة وندم :

اعتضتُ من وجه خلتي - بعد فرقة -
 كأساً أجرّع منها ما أجرّعه (٣)

(١) تشبّث : استمسك . مستهلات : سيالة متدفقة .

(٢) البين : البعد . جرمي : ذنبي .

(٣) اعتضت : استبدلت .

كم قائل لي : ذقت البين ، قلت له :
 الذنبُ والله ذنبي لست أدفعه
 ألا أقمت فكان الرشد أجمه ؟
 لو أنني يوم بان الرشد أتبعه
 إني لأقطع أيامي ، وأنفدها
 بحسرةٍ منه في قلبي 'تقطعته' (١)
 بمن إذا هجع النوم بت له
 - بلوعةٍ منه - ليلى ، لست أهجمه (٢)
 لا يطمئن لجني مضجعٌ ، وكذا
 لا يطمئن له مذ ربتٌ مضجعه (٣)
 ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
 به ، ولا أن بي الأيام تفجعني
 حق جرى البين فيما بيننا بيدٍ
 عسراء ، تمنعني حظي وتمنعه (٤)
 قد كنت من ريب دهري جازعاً فرقاً
 فلم أوقَّ الذي قد كنت أحزعه (٥)

-
- (١) أنفدها : أمضيها وأنهيها .
 (٢) هجع : رقد وآوى الى النوم .
 (٣) ربت : غبت وارتحلت .
 (٤) يد عسراء : يد باطشة قاهرة (من العسر والضيق والشدة) .
 (٥) ريب الدهر : صروفه وأحداثه المفزعة . فرقاً : خائفاً متوجساً .

حنين إلى العهد القديم :

بالله يا منزل العيش الذي درّست
 آثاره ، وعفّت مذّبت^(١)
 هل الزمان مُعيد فيك لذّتنا
 أم الليالي التي أمضته تُرجعه
 في ذمة الله من أصبحت منزله
 ووجد غيث على مغناك يُمرّعه^(٢)
 من عنده لي عهد لا يضيّعه
 كما له عهد صدي لا أضيّعه
 ومن يصدّع قلبي ذكره ، وإذا
 جرى على قلبه ذكرى يصدّعه^(٣)
 لأصبرن^٤ لدمري لا يتّعني
 به ، ولا بيّ في حال يتمّعه

(١) درست : زالت وأعت . أربع : جمع ربع : الدار أو مكان الإقامة أو ما حولها .

(٢) الغيث : المطر الكثير النافع . المغنى : المنزل الذي غني به أهله . يمرّعه : يخصبه وينضّره .

(٣) يصدّعه : يهدّيه ويمزّقه .

علماً بأن اصطباري مُعقَّبٌ فرجاً
فأضيقُ الأمر إن فكَّرتُ أوسعهُ (١)
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا
جسمي ، ستجمعني يوماً وتجمعه
وإنْ ثفل أحداً منّا منيته
فما الذي بقضاء الله يصنعه (٢)

* * *

(١) معقَّب فرجاً : متبع فرجاً ويسراً .
(٢) ثفل : تهلك . النية : الموت .

مجلس الحبيب

لصفي الدين الحلي

يأتينا شعره في عصر المخطاط الدولة العربية ، والشعر
العربي ، قَبَساً متقدماً بالشاعرية الأصيلة ، وصوتاً فريد التعبير ،
رائق الأنغام ، صافي الديباجة ، قوي السبك ، فيعمد الأمل
من جديد في قافلة الشعر العربي .. وتصدق القوافي على وتر
هذا الشاعر العراقي الأصل والنشأة ، المصري الروح والإقامة ،
صفي الدين الحلي ..

هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي ، ولد
في مدينة الحِلَّة بالعراق سنة ستائة وسبع وسبعين من الهجرة ،
وإليها نسب ، ومات في بغداد سنة سبعمائة واثنين وخمسين
من الهجرة ..

يقول عنه الرواة إنه أولع بنظم الشعر منذ حداثة سنه
- على غير عادة شعراء عصره وأهل زمانه - عاهد نفسه ألا

يمدح كريماً وألاً يهجو لثيماً ، ملتزماً بقوله إنه لا ينظم الشعر
إلا فيما أوجب له ذكراً ..

ويطالعنا صفى الدين الحلي بشخصية طريفة فائقة ، هي
شخصية الفارس الشجاع المقاتل ، يقتحم المهالك والمخاطر ،
مقدماً غير مبال أو هيب أو متردد .. تقع الفتنة في بلده
« الحيلة » بين أبناء أسرة هولاء بسبب الصراع على العرش ،
فيخوض صفى الدين غمارها غير هيب ولا وجل ، ويظهر
بطولة وشجاعة ينطق بها شعره ..

وفي ذلك العصر ، الذي سقط المجد والشرف العربي تحت
أقدام هولاء ، وخربت بغداد ، عاصمة الوطن العربي ،
واحتل العراق ، نجد صفى الدين عربياً صادق العروبة ، يحجر
بها في شعره ، ويتحمس دوماً لقومه ، ويبت فيهم روح الأنفة
والطموح والعزيمة والتمرد ، وهي مزية لا نجد لها عند شاعر
سواه من شعراء ذلك العهد ، الذين كانوا يتسترون ويتوارون
خوفاً وذعراً ورغبة في اتقاء الفتن والأخطار والحروب .

ثم يرحل صفى الدين إلى آل « أرتق » ملوك ديار بكر بن
وائل ، فيمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازي بتسع
وعشرين قصيدة سماها « درر النحور في مدائح الملك المنصور »
وهي المعروفة - في ديوان الشعر العربي - بالأرتقيات ، ثم
يتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين اسماعيل ابن الملك الأفضل
أيوب ثم بابنه شمس الدين أبي المكارم ، مادحاً ، مستحسناً

للهمم ، مصرّاً على إحياء الروح العربية والنخوة العربية
والشعم العربي ..

وتشتد الفتن ، ويضطرب نظام كل شيء ، ويفتقد الأمر
والاطمئنان ، فيرحل صفي الدين إلى مصر ، ويقربه سلطانها
الملك الناصر ، فيمدحه بعدة قصائد سماها المنصريات .. ثم
يجمع ديوانه في مصر بإشارة من ناصر الدين محمد بن قلاوون
رئيس وزراء السلطان الناصر .

ويتأثر الشاعر تأثيراً عميقاً بإقامته في مصر ، لقد هدأت
روحه وصفت لغته الشعرية ورقّت وأخذت تميل إلى السلاسة
والعذوبة ، وأصبح الفارس العنيد الجامح عاشقاً رقيقاً مرهفاً،
تفتك به محاجر العيون وسهام الأحاظ وهيف الخصور، وتسببه
المجالس الناعمة ، ومظاهر الطبيعة الغناء ، ويفتن في وصف
مجالس اللهو والأنس ، ويأسر القلوب بما أبدع من ربيعاته
وزهرياته الجميلة ، التي يقول في إحداها :

ورد الربيعُ مُرحباً بوروده

وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسبه

وأنيق ملبسه ووشى بروده

فصل إذا افتخر الزمان ، فإنه

إنسان مقلته وبیت قصيده

وغزلياته الرقيقة التي يقول في إحداها :

عبث النسيم بقــــــده فتأوَّدا
وسرى الحياءُ بخدّه فتورّدا
رشاً تغرّد فيه قلبي بالهوى
لما غدا يحمله متفردا
مغرى بإخلاف المواعد في الهوى
يا ليتـه جعل القطيعة موعدا
حسن الفصون إذا اكتست أوراقها
ونراه أحسن ما يكون مجردا

* * *

والم تأمل في شعر صفى الدين الحلي يلمس على الفور ولعه
بالبديع والمحسنات اللفظية والمعنوية التي شاعت في زمانه
لكنها ، على كثرتها ، لا تفسد ماء شعره ورونق بهائه
فشاعريته الخصة واقتداره اللعوي وحسه المرفف وذوقه
الرفيع تتغلب جميعها على هذه المحسنات والبديعيات ، ولا تجعل
القارئ يصدّم كثيراً بتكلف أو مغالاة أو تكرار أو جفاف
في التعبير ونبوّ في الصياغة .

ولعل القصيدة التي نطالعها له الآن ، أن تكون فريدة
الطابع في ديوان شعرنا العربي كله ، فهي قصيدة تدور كلها

حول وصف مجلس أنيق استمتع فيه الشاعر بحبيبه، وافتنّ في
تصوير كل ما أحاط بها من مشاهد الطبيعة والسحر والجمال :
الجمال الطبيعي والجمال الإنساني معاً ، افتناناً لا يدع زيادة
لمستزيد ، في عبارة سهلة ممتعة ، وخيال طليق مخلق ،
وموسيقى عذبة مترقصة ، كما تكشف القصيدة ، وهي طويلة ،
إن لم تكن من أطول قصائده ، تكشف عن عمق عاطفته
المشوبة ، وحبّه الشاعر الملتهب ، ووجدته المبرّح ، الذي صهر
كبرياء الفارس الشجاع وأحائها زفرات عاشق مستهام .

* * *

يقول صفي الدين الحلي في قصيدته : « مجلس الحبيب » :

أَذاب التبر في صافي اللجين
رشاً بالراح مخضوبُ اليدين^(١)
وطاف على السحاب بكأس راحٍ
فطافت مقلناه بآخرين
رخيم من بني الأعراب طفل
يحاذب خصره جبليّ حنين

(١) التبر : الذهب . اللجين : الفضة . رشا : غزال . مخضوب
مصبوغ بالخضاب (الحناء) . الراح : الحر .

يُبدل نطقه ضاداً بدال
ويشرك . عجة قافاً بفين
يطوف على الرفاق من الحُيّا
ومن خمر الرضاب بمُسكرين^(١)
إذا يحلو الحميا والحميا
شهدنا الجمع بين النيرين^(٢)
وآخر من بني الأعراب حفّت
جيوش الحسن منه بعارضين
إلى عينيه تنتسب المنايا
كما انتسب الرماح إلى ردين^(٣)
تلاحظ سوسن الحدين منه
فيبدلها الحياء بوردين
ومجلسنا الأنيق تضيء فيه
أواني الزّاح من ورق وعين
فأطلقنا قم الإبريق فيه
وبات الزّوق مغلول اليدين^(٤)

(١) الحميا : سورة الحجر وشدها . الرضاب : رحيق فم المهبوب .
(٢) النيران : الكوكبان ، يقصد بها : الحر ووجه المهبوبة .
(٣) المنايا : جمع منية ، الموت . ردين : بلاد كانت تشتهر بصناعة
الرماح ، يقال : ومع رديني .
(٤) الزّوق : (بضم الزاي) الحر ، وبكرما : وعاء من الجلد يوضع
فيه الماء أو الحر .

وشمعتنا شبيه سنات تبر
 توقدُ في أكف الساقين
 إذا ملئ الزجاج بها وطارت
 حواشي نورها في المشرقين
 عجبت لبدر كأسٍ صار شمساً
 يحفُّ من السقاة بكوكبين^(١)
 وقد صاغت يد الأزهار تاجاً
 على الأغصان فوق الجانبين
 بوردٍ كاللدهان في عقيق
 وأقداحٍ كأزرار اللجين^(٢)
 وقد جمعت لي اللذات لما
 دنت منها قطوفُ الجنين
 وما أنا من هوى الفيحاء خالٍ
 ولا ممن أحب قضيت ديني^(٣)

(١) يحف : يحاط .

(٢) المداهن : جمع دهن ، وهي قارورة الدهن ، المنيق : الخرز الأحمر .

(٣) الفيحاء : اسم لدمشق (وقد كان الشاعر دائم التنقل بين العراق والشام ومصر مشتغلاً بالتجارة) .

تملك حبه قلبي وصدري
 فأصبح سائراً في الخافقين
 وأعوز مع دنوتي منه صبري
 فكيف يكون صبري بعد بين^(١)
 إذا ما رام أن يسله قلبي
 تمثل شخصه تلقاء عيني^(٢)
 ألا يا نسمة « السعدي » كوني
 رسولاً بين من أهوى وبينني
 ويا نشر « الصبّا » بلغ سلامي
 إلى الفيحاء بين القلعتين^(٣)
 وحي الجامعين وجانبها
 فقد كانا لشملتي جامعين
 وقل لمعدي هل من نِجَازٍ
 لو عدي سالفك السالفين^(٤)

(١) البين : الفراق والسعاد . أعوز : تغدّر وامتنع .

(٢) تلقاء عيني : أمام عيني .

(٣) النشر : الريح الطيبة . الصبّا : ريح ناعمة تهب من الشرق .

(٤) نِجَاز : إنجاز وتحقيق .

سميئك كان مقتولاً بظلم
وأذت ظلمتي وجلبت حيني^(١)
وهبتك في الهوى روجي بوعد
وبعتك عامداً نقداً بدين
وجئتُ وفي يدي ، كفي وسيفي
فكيف جعلتها 'خفي' حنين^(٢) !
ولم صيرت بعدك قيد قلبي
وكان جمال وجهك قيد عيني ؟
فصرنا نشبه النسرين بعداً
وكنّا ألفةً كالفرقدين^(٣)
علمت بأن وعدك صار ميئاً
لزجري مقلتيك بصارمين^(٤)

-
- (١) حيني : هلاكي وموتي . سميك : من اسمه على اسمك .
(٢) حنين : يضرب به المثل عند العرب في العودة صغر اليدين دون
أي كسب .
(٣) الفرقدان : نجهان متجاوران في السماء .
(٤) ميئاً : كذباً وزوراً .

وقلت وقد رأيتك : خاب سعي
 لكون البدر بين العقربين
 فلم دليتي بجمال زور
 ولم أطمعتني بسراب مين^(١)
 وهلاً قلت لي قولاً صريحاً
 فكان المنع إحدى راحتين
 عرفتك دون كل الناس ، لما
 نقدتك في الملاحه نقد عين^(٢)
 وكم قد شاهدتكم الناس قبلي
 فما نظروك كلهمو بعيني
 وطاوعت الفتوة فيك حتى
 جعلتك في العلاء برتبتين
 فلما أن خلا المغنى وتبنا
 عراًة^(٣) بالعفاف مؤزرين

(١) دليتي بجمال زور : أطمعتني كذباً في الري والسعي .

(٢) نقدتك : فحصتك واختبرتكم وميزتك .

(٣) المغنى : المكان أو الدار التي تضمننا . مؤزر : ملتف بإزار وهو كل ما يستر الجسم .

قضينا الحج ضمًا . واستلاماً
 ولم نشعر بما في المشرنين
 أتهجرني وتحفظ عهد غيري
 وهل للموت عذرٌ بعد دين
 وقلت : الوعد عند الحرّ دين ،
 فكيف مطّلتني وجعدت عيني^(١)
 إذا ما جاء محبوبي بذنب
 يسابقه الجــــــــــــــــال بشافعين
 وقلت : جعلت كلّ الناس خصمي
 لقد شاهدت إحدى الحاليتين
 فكان الناس قبل هواك صحي
 فهل أبقيت لي من صاحبين ؟
 بعادي أطمع الأعداء حق
 رأوك اليوم خزر الناظرين^(٢)
 وملاً طالموك بعين سوء
 وأمرني نافذ في الدولتين^(٣)

(١) مطّلتني : سوفت بوعدتي ولم تف به ..

(٢) خزر الناظرين : ضيق العينين لأنه ينظر بمؤخرها .

(٣) الدولتان : يقصد بها السيف والقلم أي أنه فارس شاعر .

وما خفقت جناح الجيش . إلا
 رأوني ملء قلب العسكريين
 لئن سكنت إلى « الزوراء » نفسي
 فإنَّ القلب بين محرِّكين ^(١)
 هوى يقتادني لديار بكر
 وآخر نحو أرض الجامعين ^(٢)
 سأسرع نحو رأس العين خطوي
 وأقصدها على رأسي وعيني
 وأسرح في حمى « جيرون » طرفي
 وأربع في رياض النبتين ^(٣)
 فليس الخطبُ في عيني جليلاً
 إذا قابلته بالأصغرين ^(٤)

-
- (١) الزوراء : مدينة بغداد ؛ سميت بهذا الاسم لازورار قبلتها (بها عوج) . بين محرِّكين : بين عاملين قويين يتجاذبان .
 (٢) أرض بكر : العراق . أرض الجامعين : دمشق .
 (٣) جيرون : أحد أبواب دمشق القديمة . أسرح طرفي : أقلب نظري .
 أربع : أستمع بالربيع .
 (٤) الأصغران : هما اللسان والقلب .

فيا مَنْ بَانَ لما بَانَ صبري
وحاربني رقادُ المقلتين
تنفص فيك « بالزوراء » عيشي
وبُدِّلَ زَيْنُ لَذَاتِي بشين^(١)
وما عيشي بها جَهَنَّمًا ، ولكن
رأيت الزَّيْنِ بعدَكَ غيرَ زين^(٢)

* * *

(١) الشين : ضد الزين . والزوراء : من أسماء بغداد .

(٢) الجهم : العابس المشوب بالكدر والاعظام .

[أضحى التنائي]

لابن زيدون

هو أشهر صوت شعري انطلق في ربوع الأندلس ، مفرداً ،
مردداً أحلى القصائد والمقطوعات ، شاعراً ووزيراً وعاشقاً
مستهماً ، وسجيناً وهارباً ومطارداً ، وساعياً من بلدة إلى
بلدة ومن حاكم إلى حاكم ، وأتيح لشعره من الذبوع ما لم يتح
لغيره من شعراء الأندلس - ذلك هو ذو الوزارتين : الكاتب
الشاعر الرقيق : ابن زيدون عاشق ولادة بنت المستكفي ،
وبحاري الغرب في رأي الكثيرين - تشبهاً له ببحتري
الشرق - في رقة تعبيره وروعة أساليبه وانطلاق خياله وأصالة
فنه وقدرته على التحليق الشعري .

ولد ابن زيدون في قرطبة قرب ختام القرن الرابع
الهجري - سنة ثلاثئة وأربع وتسعين - وبها تنقذ وأتقن فن
الأدب : شعره ونثره ؛ ثم اتصل بابن جهور وصار وزيره
وكاتبه الأول حتى كان حبه لولادة ومزاحمة ابن عبدوس له في

حبها ، ومكيدته له عند ابن جهور التي انتهت بسجنه ، ومن السجن يرسل ابن زيدون أناتٍ مستعطفة وقصائد مليئة بالشكوى والمرارة والرجاء ، فلا يلتفت إليه أحد - وينجح ابن زيدون في الفرار من السجن ومغادرة قرطبة ، ثم يعود إليها بعد أن توفي أبو الحزم بن جهور وتولى الحكم ابنه الوليد ، الذي يُعيده إلى سابق مكانته ومنزلته ويجعله سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف .

لكن الحسد والحقد والدسائس تلاحق ابن زيدون من جديد ، فينقلب عليه الوليد ، ويضطر إلى الفرار من قرطبة ثانية ، ويتنقل في الأندلس ، حتى يُلقى عصا التسيار لدى المعتضد حاكم إشبيلية ، ويموت المعتضد ، فيصبح ابن زيدون وزير ابنه « المعتد » الذي كان شاعراً ، فيعلى مقام ابن زيدون ، ويتأنق نجمه ، وتلتع مواهبه وتزكو شاعريته ، وتدور بين الأمير ووزيره مطارحات شعرية كثيرة ، ثم يتم للمعتد الاستيلاء على قرطبة موطن ابن زيدون وينتقل إليها ويجعلها عاصمة ملكه .. وتثور في إشبيلية فتنة طائفية بسبب اليهود فيرسل المعتد ابن زيدون لتهديتها بما له من منزلة في قلوب الإشبيليين ، لكن الشاعر الذي كان قد هزم وشاخ وأنهكه المرض لا يكاد يصل إلى إشبيلية حتى تلج عليه الحمى ويموت فيها سنة أربعمائة وثلاث وستين من الهجرة .

هذه الحياة العاصفة المتقلبة ، وهذه الأحداث الجسيمة

المتتالية ، صقلت وجدان ابن زيدون وألهبت قدرته الشعرية ، وانعكست في شعره تفتتاً في الشكوى والحنين والتأمل والنظر في مصائر الأيام وتقلب الزمان . لكن أبعد ما غوراً في نفسه هو حبه لولادة بنت المستكفي ، التي كانت تُقربُه حيناً ثم تقرب غريمه ومنافسه ابن عبدوس حيناً آخر . ومن أجل ولادة كتب ابن زيدون نونيته الرائعة - أشهر قصائده على الإطلاق - والتي عارضها أحمد شوقي وهو يعاني بدوره مرارة النفي والاعتراب في أسبانيا بنونيته التي مطلعها :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا

نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

والتي جعلت كثيراً من المولعين بالمقارنات يتوقفون عند القصيدتين ، تأملاً وتحليلاً وتقييماً ومقارنة ، كما توقفوا عند السينيتين : سينية البحري وسينية شوقي للسبب نفسه .

يتميز شعر ابن زيدون بالعذوبة وتوافر النغم الموسيقي والسهولة ، كما يتميز بالانسياب والاسترسال والتدفق في طواعة ويُسّر ، ودون جهد أو إعفات ، شأن الشاعر المطبوع الذي يمتح من معين صاف لا ينضب ، وشعره في الغزل يتميز بالنعومة والبراعة في التصوير ، تصوير خلجات النفس ومكنون أسرارها ، ولوعة الحب الصادق في معاناته ومكابدته ، كما يتميز بمزجه الغزل بوصف الطبيعة ، مما أعطى لقصائده في الحب إطارها الطبيعي المشرق ، وجعلها شبيهة باللوحات

المصوّرة ، الناطقة بالفن الرفيع والشعور الحيّ المرهف ،
والوجد المتقد المبرّح ..

يقول الدارسون لحياة ابن زيدون وشعره ، إنه كتب
نونيته هذه وهو هارب من السجن بعد أن يئس من إقناع ابن
جهور بإطلاق سراحه ، وأصبح بعيداً عن مركز الوزارة
المرموق ، وتلفتت يبحث عن ولادة فألقى نفسه بعيداً عنها
أيضاً .. ولقد عادت إليه حريته بالهرب من السجن ، ولكنه
ما يزال يعاني غربتين أو معضلتين ، الوزارة التي يصبو إليها ،
والتي يعتبر عودته إليها تصحيحاً لمسار حياته وتكريماً لذاته ،
ولادة التي بذل لها نفسه وعصارة قلبه وخلاصة شعره والتي
يخشى أن يفقدها إلى الأبد ..

إن الشاعر العاشق يستعطف محبته وضالته ويذكرها
بأيامها الماضية ، لعلها ترقّ وتلين ، فيعود ثانية ما كان بينهما
من ريق الوصال ، وأنيس الوداد ..
يقول ابن زيدون مخاطباً ولادة ..

استهلال وتوجع :

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيبر لقينا تجافينا

ألا، وقد حان صبحُ البينِ، صَبَحْنَا
 حينٌ، فقام بنا للحينِ ناعيناً^(١)
 من مبلغِ الملبسِينا بانقِراحِهمو
 'حزناً مع الدهر لا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
 أن الزمان الذي ما زال يضحكنَا
 أنساً بقريهمو قد عاد 'يُبكِينَا
 غيظ العدا من تساقينا الهوى، فدَعَا
 بأن نَعَصَّ فقال الدهرُ آمينَا
 فأنحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا
 وانبثَّ ما كان موصولاً بأيدينا^(٢)
 وقد نكون وما 'يُخشى تفرُّقنا
 فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا
 شاة الحساد :

يا ليت شعري، ولم نعتب أعاديكم
 هل نال حظاً من المتبى أعادينا^(٣)

(١) الحين : الهلاك . البين : الفراق .

(٢) انبثَّ : انقطع .

(٣) نعتب : نرضى ، والمتبى : الرضا .

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
 رأياً ، ولم نتقلد غيره ديناً
 ما حقننا أن 'تقرؤا عين ذي حسدٍ
 بنا ، ولا أن تسرؤوا كاشحاً فينا (١)
 كنا نرى اليأس 'تسلينا عوارضه
 وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا

وفاء على العهد :

بنتم وبنّا ، فما ابتلّت جوانحنا
 شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا (٢)
 نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
 يقضي علينا الأسى لولا تأسينا (٣)
 حالت لفقدكمو أيا منّا ففدت
 سوداً ، وكانت كم بيضاً ليالينا (٤)

(١) الكاشح : العدو المبغض . تقرؤا : تسمعوا .
 (٢) بنتم وبنّا : أي ابتعدتم وابتعدنا . الجوانح : جمع جانحة ، وهي الضلع ، والراد بالجوانح ما تفض من القلب والحشا الملتهب بالحلب .
 ولا جفت مآقينا : أي ولا جفت عيوننا من الدمع والبكاء عليكم .
 (٣) التأسي : التصبّر .
 (٤) حالت : تغيرت من أبيض الى أسود .

إذ جانب العيش طَلَّقُ من قَالَفْنَا
 ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
 وإذا هصرنا فنون الوصل دانية
 قطافها ، فجئنا منه ما شينا^(١)
 ليسق عهدهم ، عهد السرور ، فما
 كنتم لأرواحنا إلا رياحيننا
 لا تحسبوا نأيكم عنا يفتِّرنَا
 إن طالما غيَّرَ النَّاي المَهِينَا^(٢)
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
 منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا
 ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا
 ولا اتخذنا بديلاً منك يُسَلِّينَا
 تحية واستعطاف :

يا ساريَ البرقِ غادرِ القصرِ واسقِ به
 من كانِ صرفِ الهوى والود يسقينَا^(٣)

(١) هصرنا : جذبنا وأملنا . فنون الوصل : أنواعه وألوانه . قطافها : ثمارها . ويرى : قطوفها .
 (٢) نأيكم : بعدكم .
 (٣) غادر القصر : اسقه وأمطره غدوة (أول النهار) . صرف الهوى : خالص الهوى .

واسأل هنالك هل عنى تذكرنا
 إلفاً تذكره أمسى يُعنيننا (١)
 ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا
 من لو على البعد حياً كان يحينا
 فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة
 منه ، وإن لم يكن غباً تقاضينا (٢)

صورة وصفية لولادة :

ربيبُ مُلكٍ كأنَّ الله أنشأه
 مسكاً ، وقدّر إنشاء الورى طينا
 أو صاغه ورقاً محضاً ، وتوجّه
 من ناصع الثبر إبداعاً وتحسيناً
 إذا تأوّد آدته رفاهية
 'نوم' العقود ، وأدمته البرى لنا (٣)

(١) عنى : أمّ وأضنى

(٢) الفب : الزيارة بعد أيام (المتقطعة) .

(٣) تأرد : تننى وتمايل . آدته : أثقلته . نوم العقود : عقود
 مزدوجة من اللؤلؤ . البرى : الخلاخيل .

كانت له الشمس ظُثراً في أكلته
 بل ما تجلّى لها إلا أحيينا^(١)
 كأنما أثبتت في صحن وجنته
 زُهرُ الكواكب تعويداً وتزيينا^(٢)
 ما ضرّ أن لم نكن أكفاه شرفاً
 وفي المودة كافٍ من تكافينا
 يا روضة طالما أجنّت لواحظنا
 ورداً جلاه الصبا غصّاً ونسرينا^(٣)
 ويا حياة قملينا بزهرتها
 منىً ضروباً ولذاتِ أفانينا^(٤)

-
- (١) ظُثراً : مرضعة . الأكلة : الستائر الرقيقة (جمع كلة) .
 (٢) زهر الكواكب : النيرة المشرقة (جمع أضر) .
 (٣) أجنّت لواحظنا : جعلتها نجني وتقطف . النسرين : نوع من
 الورود أكثر ما يكون أبيض الزهر عطر الرائحة .
 (٤) قملينا : قمطنا . ضروباً وأفانينا : ألواناً وأنواعاً . المنى :
 جمع منية .

وبأ نعيماً خطرتا من غضارته
 في وشي نعيمى سحبتا ذيله حيناً (١)
 لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة
 وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
 إذا انفردت وما شوركت في صفة
 فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيناً
 يا جنة الخلد أبذلنا بسدرتها
 والكواثر العذب زقوماً وغسيلنا (٢)
 كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
 والسعد قد غض من أجفان واشينا
 إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم
 في موقف الحشر نلقاكم ويكفينا

(١) غضارته : نضارته وورنقه والنمة والسمة . الوشي : نوع من
 الثياب الحريرية المنقوشة .
 (٢) سدرتها : أي سدرة المنتهى ، شجرة عن يمين العرش في السماء .
 الزقوم : شجرة في جهنم منها طعام أهل النار . الغسلين : ما يسيل من
 جلود أهل النار .
 ويروى البيت : بلسلسها بدلاً من بسدرتها ، ومعناه : الماء العذب
 البارد .

سرّانٍ في خاطر الظلماء يكتننا
حق يكادَ لسانُ الصبح يفشينا^(١)
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا

لوعة وأسى :

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
مكتوبةً وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله
شرباً ، وإن كان يروينا فيظميننا^(٢)
لم نجف أفق جلال أنت كوكبه
سالين عنه ، ولم نهجره قالينا^(٣)
ولا اختياراً تجنبناه عن كتبٍ
لكن عدتنا على كره عوادينا^(٤)

(١) يفشينا : يفضعنا ويشي بنا ويمرضنا للأنظار .

(٢) الشرب : المورد العذب الماء .

(٣) لم نجف : لم نفارقه ونبتعد عنه كراهية . قالينا : أي مبغضينا .

(٤) عن كتب : عن قرب . عدتنا العوادي : أي صرفتنا وشغلتنا

أحداث الدهر وصروفه .

نأسى عليك إذا 'حشّت مشعشة'
فينا الشمول' وغنا'نا مغنينا^(١)
لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا
سيما ارتياح'، ولا الأوتار تلهينا

نداء أخير :

دومي على العهد - ما دمنا - محافظة'
فالحر' من دان إنصافاً كما دينا
فما استعضنا خليلاً منك يجبسنا
ولا استفدنا حبیباً عنك يثينا^(٢)
ولو صبا نحونا من 'علو' مطلعه
بدر الدجى لم يكن حاشاك يُصبينا^(٣)
أولي 'وفاء' وإن لم تبدلي 'صلة'
فالذكر' يقنعنا ، والطيف' يكفينا

(١) مشعشة : مزوجة بالماء . الشمول : من أساء الخير .
(٢) استعضنا : استبدلنا . يثينا : يردنا ويصرفنا ويروي : يغنينا
بدلاً من يثينا .
(٣) صبا : مال . يصبينا : يجعلنا نعشقه ونهم به .

وفي الجواب متاع إن شفعتِ به
بيض الأيادي ، التي ما زلتِ قولينا^(١)
عليك منّا سلام الله ما بقيتُ
صباة بك 'نخفيها ، فتخفيها^(٢)

(١) قولينا : تمطين وتمنحين . ويرى : اقتناع بدلاً من متاع .
(٢) الصباة : الشوق والولع الشديد . ويرى : صباة منك بدلاً من
صباة بك .

يا ليلُ الصب متى غده ؟

للحُصري القيرواني

وهذه قصيدة من عيون الشعر العربي ، ذاعت شهرتها في
أندية الأدب ومجالس الغناء وتناقلها الناس جيلاً بعد جيل ،
ولشهرتها ودورانها ، فقد عارضها شعراء كثيرون في عصور
متتابة ، كل منهم يحاول أن يتجاوزها فتاً وشاعرية ، ومن
أشهر الذين عارضوها : أحمد شوقي شاعر العصر الحديث ،
بقصيدته التي يقول فيها :

مضناكَ جفاه مرقدهُ
وبكاهُ ورحم 'عوده

والتي ذاعت هي الأخرى واشتهرت في أندية الأدب ومجالس
الغناء ، وتناقلها الناس ، وأخذوا يوازنون بينها وبين قصيدة
الحُصري ، ولهم في هذه الموازنات دروب وفنون ، وأحاديث
ذات شجون .

تلك هي قصيدة « يا ليل الصب » للشاعر الضرير الحصري القيرواني ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري ، ولد في القيروان عام أربع مائة وعشرين من الهجرة ، وقضى فترة من صباه وشبابه في القيروان ، ثم غادرها وهو على مشارف الثلاثين بعد أن أجاد فن الشعر وعلم القراءات ودرس الدين والشريعة . وكان خروجه من القيروان بعد نكبتها التي خربتها سنة أربع مائة وتسع وأربعين في أعقاب الخلاف الذي نشب بين الفاطميين والمعتز بن باديس والذي أدى إلى انقضاء قبائل بني هلال وبني سليم على القيروان ، فتشتت أهلها منها ، وخرج أدباؤها وعلمائها ، فمنهم من ذهب إلى صقلية كابن رشيق ، ومنهم من توجه إلى الأندلس كابن شرف القيرواني ، أما الحصري فكان خروجه إلى « سبتة » ، فاستقر بها زماناً . . . واتصل في الأندلس بعدد من الأمراء مادحاً ، ونائلاً للجوائز وهباتهم وعطاياهم .

ثم عاد الحصري من الأندلس إلى المغرب ، غير أنه استقر في مدينة طنجة ، حتى كانت وفاته سنة أربع مائة وثمان وثمانين من الهجرة .

يقول عنه ابن بسام في كتابه « الذخيرة » كان أبو الحسن الحصري بحراً بارعاً ورأس صناعة وزعيم جماعة ، وقد طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه القيروان ، والأدب بأفق الأندلس يومئذ ، نافق السوق ،

مغمور الطريق ، فتهاواه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم ،
وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم .

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك ، فاحتمل على مضض بين
زمانه ، ويعدّ قطره ، ثم اشتمت عليه مدينة طنجة بعد
خلع ملوك الطوائف وتوفي بها رحمه الله .. وهو القائل :

أقول له وقد حيّا بكأس

لها من ميسك رقت ختام

أمن خديك تعصر ؟ قال : كلا

مق عصرت من الورود المدام

ويروون - أيضاً - أنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية ،
فإنّ تآليفه في علم القراءات تدلّ على ذلك ، وأنه كان بصيراً
بشئون الحياة ، فإنّ في الاغتراب وصحبة الأمراء والملوك
عوناً على فهم دقائق الوجود ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن هي أشهر قصائد الحصري ،
وقد تناول فيها الشاعر بأسلوبه المرهف ولغته الرقيقة شؤوناً
شتى مما يدور عادة على لسان المحبين ، ويفضح أسرار نجواهم
ومكنون قلوبهم .. تكلم عن طول الليل ، وطيف الخيال ،
وخر الرضاب ، وسيف المقلة وجناية العين وحرمة الخد
واستعطاف الحبيب وفناء الحب . كل ذلك في إطار من

الشاعرية الصادقة ، والتعبير البليغ الموحى ، والخيال السامي
الطليق .

يقول الحصري في قصيدته : « يا ليلُ : الصبُّ متى
غدُهُ ؟ » .

يا ليلُ : الصبُّ متى غدُهُ ؟
أقيامُ الساعةِ موعدهُ (١)
رقدَ السَّارُ فأرقهُ
أسفُ البينِ يُردِّدُهُ (٢)
فبكاهُ النجمُ ورقَّ له
مما يرعاهُ ويرصدُهُ
كلِّفَ بغزالٍ ذي هَيْفٍ
خوفُ الواشينِ يُشرِّدُهُ (٣)
نصبت عيناى له شَرَكاً
في النومِ فعزَّ تصيدُهُ (٤)

(١) الصب : العاشق المستهام .

(٢) البين : الفراق والبعد .

(٣) كلِّف : مولع ومتيم ، الهيف : رقة الخصر وضمر البطن ورشاقة
القوام . يُشرِّدُهُ : يبعده ويحمله لا يقرُّ في مكان .

(٤) الشَّرَك : حبال الصيد ، المصيدة . عزَّ : امتنع وصعب .

وكفى عجباً أني قنصُ
 للسرْبِ سباني أغيدُهُ (١)
 صنمٌ للفتنة منتصبُ
 أهواه ولا أتعبده (٢)
 صاح ، والخمرُ جنى فيه
 سكران اللحظِ معريده (٣)
 ينضو من مقلته سيفاً
 وكأن نعاساً يفسيده (٤)
 فيريق دَمَ العشاق به
 والويل لمن يتقلده (٥)
 كلا ، لا ذنباً لمن قتلت
 عيناه ، ولم تقتل يده

* * *

-
- (١) قنص : صياد . سباني : صادي وأسرني بحسنة . الأغيد : الناعم
 المثني . المقصود به الحبيب .
 (٢) صنم للفتنة : تمثال للفتنة .
 (٣) جنى له : ثرة له . اللحظ : باطن العين .
 (٤) ينضو : يستل وينزع .
 (٥) يريق : يسفك ، يتقلده : يحمله .

يا من جحدتُ عيناه دمي
 وعلى خدييه تورده (١)
 خدك قد اعترفا بدمي
 فعلام جفونك تجحدُ
 انتي لأعيدك من قتلي
 وأظنك لا تتعمده (٢)
 بالله هب المشتاق كرى
 قلعل خيالك يسعدده (٣)
 ما ضررك لو داويت ضنى
 صبّ يضيئك وتبعده
 لم يبق هواك له رمقا
 فليبك عليه عوده (٤)
 وغدا يقضي أو بعد غد
 هل من نظّر يتزوده (٥)

-
- (١) جحدت : أنكرت . تورده : احمراره ، والمقصود الاشارة الى حمرة دم العاشق المقتول .
 (٢) أعيدك : أترهك .
 (٣) هب : امنح ، الكرى : النوم .
 (٤) عوده : جمع عائد ، زائر المريض .
 (٥) يقضي : يهلك ويموت . يتزوده : يستمتع به ويناله .

يا أهلَ الشوق لنا شَرَقُ
بالدمع يفيضُ مُورَدُهُ (١)
يهوى المشتاقُ لقاءكمو
وصروف الدهر تبَعْدُهُ (٢)
ما أحلى الوصلَ وأعذبهُ
لولا الأيـامُ تُنكِدُهُ
بالبين وبالهجرانِ ، فيا
لفؤادي .. كيف تجلّدهُ ! (٣)

-
- (١) يَشْرُقُ بالدمع : يفص ويختنق .
(٢) صروف الدهر : أحداثه ونوائبه .
(٣) تجلّده : تحمله وتصبره .

صلوات في هيكل الحب

لأبي القاسم الشابي

لعلها أشهر قصائد الحب في الشعر العربي الحديث .

وهي شهرة لم تنلها بين شدة الأدب ومحبي الشعر، إلا بقدر ما كانت صيحةً جديدةً في عالم التعبير الشعري عن تجربة الحب .. وكانت جدتها وأصالتها وإيقاعها الموسيقي المتناغم هي حيثيات ذبوعها وانتشارها وحفظ الكثيرين لها .

تلك هي قصيدة « صلوات في هيكل الحب » للشاعر التونسي الخالد أبي القاسم الشابي .. الذي عبر سماء الشعر العربي ، شهاباً مباغتاً ، لم يكد نوره يشعّ ويسطع ، حتى اختطفته يد المنون في ريعان الشباب ، وهو لم يجاوز من العمر خمسة وعشرين ربيعاً ، فانطفأ الشهاب الساطع ، وسكت الوتر الجديد المتفرد .

وُلد أبو القاسم عام ١٩٠٩ لأبٍ من علماء الدين هو الشيخ

محمد بن بلقاسم الشابي سليل أسرة « الشابية » التي وهبت حياتها للعلم ، بعد أن أنجبت - في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين - كوكبةً من حملة القلم والسيف ، امتلأ بهم التاريخ التونسي . . وكان الأب من خريجي الأزهر الشريف ، به درس أول الأمر مقيماً في مصر سبع سنين ، ثم درس بجامعة الزيتونة في تونس سنتين أخريين حصل بعدها على شهادة « التطويص » - وهي شهادة إتمام الدراسة بالكلية الزيتونية آنذاك - ثم عيّن قاضياً شرعياً بعد عام واحد من مولد ابنه الأكبر أبي القاسم ، فتصرف في قضاء كثير من البلدان التونسية . وإلى هذا الأب ، يعود الفضل في التكوين الفكري والخلقي الذي أتيح لأبي القاسم . وفي ذلك المناخ الوادع الهاديء ، تفتحت مداركه واستيقظت أعماقه ، ووجد في صداقته لأبيه نعم المعين على فهم ما حوله والتطلع إلى الخبيء الذي لم يتكشف بعد .

يقول أبو القاسم عن أبيه : « لقد أفهمني معاني الرحمة والحنان ، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في هذا الوجود » .

ثم يتناح لأبي القاسم خلال سنوات عمره الباكر لونٌ من الرحيل والتطواف والتنقل لازم الأسرة عشرين عاماً ، ضربت خلالها في البلاد التونسية طويلاً وعرضاً ، متنقلة من « قابس » إلى « سليانة » و« فتالة » ، ومن « مجاز الباب » إلى « رأس

الجليل « و فزغوان » ، وواعية شاعرنا الملهم تلتقط وتختزن ،
وترى وتتأمل ، وتنفتح وتكتمل ، وتمتلئ بسحر ألوان الطبيعة
التونسية ، وتنوّع لهجاتها ، واختلاف عاداتها ، وتعدد بيناتها ،
ثم هو ينقل بصره بين غابات الصنوبر والثلوج الراقدة على قمم
الجبال ، متأملاً حياة الرعاة في الوديان ، بين شياهم وأغنامهم
وقطعانهم ، يعيشون حياة الفطرة والبساطة ، وحياة من
استوطنوا المدن وابتلوا بشرور ما حملته المدينة إليهم من زيف
ومجاعة لطبيعة العصر وفساد في الخلق والطباع .

وتمتلئ وجدان الشاعر الصغير السن ، ويتضخم رصيده
من تجربة الحياة ، ويتدفق معين شاعريته ، وتزدهر ريشته ،
فتبدع أجمل الألوان واللوحات ، وتشدو فيثارتة بأعذب
ما عرفه شعرنا الحديث من أنغام ، تتجه كلها صوب الحب
والطبيعة والنفس الانسانية المعذبة ..

درس الشابي في جامع الزيتونة وهو في الثانية عشرة من
عمره ، واكتملت له صول الثقافة العربية وينابيع التراث العربي
في أزهى عصوره ، بالإضافة إلى اطلاعه على روائع الأدب
العربي الحديث في مصر والعراق وسوريا والمهجر ، وبدأ
شعره يصفح الأسماع عام ١٩٢٣ وهو في الرابعة عشرة من
عمره ، وسرعان ما تأكد نبوغه المبكر ، ونضجه الشعري
الطارق ، وتواتر قصائده ، في مجلة « النهضة » التونسية ،
ثم في مجلة « أبولو » المصرية التي كان يصدرها الدكتور أحمد

زكي أبو شادي ، والتي كانت سفيراً للذوق الشعري الجديد في الوطن العربي ، وللقلم الفنية الجديدة ، داعية لها ومبشرة بها ، ولأبولو يرجع الفضل في ذبوع شهرة الشابي ، على مستوى الوطن العربي كله ، وتأكيده منزلته الشعرية بين شعراء جيله ، طليعة وراندا ، وشهاباً ساطعاً متفرداً ، ووتراً شادياً بأجل وأعذب ما ألهمته إلهة الشعر ..

وينكب الشاعر بوفاة والده ومعلمه وصديقه عام ١٩٢٩ ، فتتوهم حساسيته الشديدة بوقع الكارثة ، ثم يضطلع بأعباء الأسرة الكبيرة ويختار الطريق الوعر - رافضاً باب الوظيفة الحكومية - مؤثراً حياته البسيطة على رأس أسرته في « نوزر » حيث تزوج ..

وفي السنة نفسها يصاب الشابي بداء تضخم القلب ، وهو ابن الثانية والعشرين ، وينهاه الطبيب عن الإرهاق النفسي والفكري ، خاصة عن الانفعال الشعري المتقد ، لكنه لا يبالي بنصائح الطبيب ، ويواصل إنتاجه شعراً ونثراً ، ويصبح حديث الأوساط الأدبية في كل الوطن العربي مشرقه ومغرب ، بل إن الدكتور أحمد زكي أبو شادي - أمين جماعة أبولو - يكل إليه كتابة تصدير ديوانه « الينبوع » .

وفي صيف ١٩٣٤ يشرع الشاعر المريض المرهق في جمع ديوانه « أغاني الحياة » على أمل أن يطبعه في مصر ، لكن المنية تباغتته بعد أن اشتد به المرض ، ويموت في مدينة تونس

فجر ٩ أكتوبر ١٩٣٤ ثم ينقل جثمانه إلى بلدته « توزر »
حيث قبره .

يقول عنه معاصروه وأصدقاؤه : « كان نحيف الجسم ،
مديد القامة ، قوي البديهة ، سريع الانفعال ، حاد الذهن ،
تكفكف رقيقة طبعه من غرب عاطفته (حدة عاطفته)
وحدة ذهنه ، يراه أصدقاؤه بشوشاً كريماً وديماً متأنقاً طروباً
لمجالس الأدب يحب الفكاهة الأدبية ، ويراه من لم يخاطبه حثياً
محتشماً ، ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية
يُبدئها لخاصة خلطائه في غير ما تخرج متى اجتمع بهم ، ويحامر
بها العامة في شعره ونثره . وكان محباً لبلاده صادق الوطنية ،
يفيض وجدانه بآمال بلاده وآلامها ، ويؤمن بأن لقادة الفكر
رسالة إنسانية سليمة حاول جهده أن يحققها خلال حياته
القصيرة - كالشهاب - قولاً وعملاً .. »

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لأبي القاسم الشابي ، قرأها
الناس لأول مرة في مجلة أبولو التي ظلت تصدر بين عامي
١٩٣٢ ، ١٩٣٤ في القاهرة ، وسرعات ما جذبت الاهتمام
وشدت الأنظار إلى هذا الوتر الجديد ، وهذه اللغة الشعرية
الجديدة ، وهذا التناول الجديد لتجربة الحب في الشعر الحديث
بصورة غير مسبقة ؛ في إطار من الخيال العالي المرنح ، يمتح
من أصول بيئته التونسية الجميلة ، ويوشي مواكب شعره بصور

أخاذا فاتنة . ودهش الشعراء والأدباء والقراء لهذه اللوحة الشعرية الفاتنة التي استطاع الشابي - في اقتدار وأصالة وتمكن - أن يرسمها لحبيبتة ، وأن يجعل منها كائناً سماوياً يفيض رقة وطهراً وشفافية ، بل ملاكاً من ملائكة الفردوس يحيي في الأرض روح السلام والمحبة ، وربيعاً تخلص به الدنيا ، وتفيق على موكبه الحياة ، وتنتشي روحه الكثيرة الحزينة بالحب وتشدو كالبلبل الفريد ، وينطلق من جديد طموحه ونبضه وتوجهه ، ويحيا فيه ما كان قد جف ومات من عذاب الأماني وحلو التفريد ، فهي روح الربيع وهي أنشودة الأناشيد وهي سحر الشباب ، وهي موسيقية اللغات والخطوات ، وهي هي الحياة في أجمل صورها وأنضرها وأحفلها بالبهجة والأمل والاشراق ، وهي فوق حدود الخيال والشعر والفن ، وهي قدس الشاعر ومعبده وصباحه وربيعه ونشوته وخلوده .. وهي معبوده الذي يخشع دوماً لروعه وجلاله وجماله ..

فهل رأى الناس - قبل الشابي - محبوباً على هذه الصورة الفاتنة ، الآسرة ، المكتملة لوناً ونغماً وعطراً ؟ وهل عرف شعرنا العربي قبل هذه القصيدة الفاتنة ، مثل هذا الافتنان في رسم ملهمة الشاعر وتجسيدها باعتبارها كل ما حوله من جمال: الطبيعة والكون والوجود والربيع والصباح والدفء والحياة والنجوم والطهارة والأناشيد والموسيقى والنشوة والخيال !

ونتأمل القصيدة ، فيأسرنا هذا النفس الشعري النامي
 المطرد ، وهذه الموسيقى المتلاحقة المنسابة ، وهذه الصور
 الشعرية الفاتنة المعبرة ، وهذا العشق الصادق العنيف ، لكنه
 عشق طاهر نقيّ يذكرنا بعشق العذريّين أمثال: قيس وجميل
 وعروة وأضرابهم .. بل إنه ليذكرنا بعشق المتصوفة ، الذين
 تقافوا في حبهم ، وامتزج فيه العاشق والمعشوق ، والإنسان
 بالحقيقة الكلية المطلقة ، وبلغوا مرتبة الحلول عشقاً وصعوداً
 ووصولاً إلى حيث سلام الطمأنينة ، و قدسية الوصال .

ويختتم الشابي رائعته بصلاة شعرية حارة ونداء هامس
 أسرّ، يتوجه به إلى حبيبته التي يشيد سحر عينيها جمال كونه
 والتي يفجر إلهام حسننها حقيقة عالمه، يسألها ألا تهدم ما شاده
 الحسن في فؤاده من عوالم غنية خصبة وخيالات عذبة مؤنسة،
 وألا تسحق آمال نفسه المتطلعة إلى حياة هائلة وادعة في ظل
 من تحب وتهوى .

والآن إلى قصيدة الشابي :

صلوات في هيكل الحب

عذبة أنت :

عذبة أنتِ ، كالطفولة ، كالأحد
سلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسما الضحوك ، كالليلة القمر
سراء ، كالورد ، كابتناسم الوليد^(١)
يا لها من وداعة وجمال
وشباب منعّم أملود^(٢)
يا لها من طهارة تبعث التق
سديس في مهجة الشقي العنيد
يا لها برقة تكاد يرفّ الـ
سورد منها في الصخرة الجلسود^(٣)
أي شيء تراك ؟ هل أنت و فينو
س « تهادت بين الوري من جديد^(٤) »

(١) القمر : القمر ، المضيئة بنور القمر .

(٢) الأملود : الناعم .

(٣) الجلسود : الصلابة القاسية .

(٤) فينوس : الهة الجمال في الأساطير اليونانية .

لتعيدَ الشباب والفرح المله
سولَ للعالمِ التّعيسِ العبيدِ^(١)
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأر
ضِ ، ليُحيي روح السلام العبيد^(٢)

أنت ما أنت ؟

أنت ما أنتِ ؟ أنتِ رسمٌ جميلٌ
عبقريٌّ من فن هذا الوجودِ
فيكِ ما فيه من غموضٍ وعمقٍ
وجلالٍ مقدّسٍ معبودِ
أنتِ .. ما أنتِ ؟ أنتِ فجر من السحر
رِ ، تجلّئي لقلبي المعبود^(٣)
فأراه الحياة في موتى الحس
نِ ، وجلّئي له خفايا الخلود^(٤)

(١) العبيد : المضى .

(٢) العبيد : القديم ، العريق .

(٣) المعبود : الذي تيممه العشق والهايام .

(٤) موتى : ناضر . جلّئي : كشف وأظهر .

أنت روح الربيع ، تختال في الدند
يا فتهتز رائمات الورود
وتهب الحياة سكرى من العط
(١) ويدوي الوجود بالتفريد
كلما أبصرتك عيناى تمشي
ن بخطو موقع كالنشد
خفق القلب للحياة ، ورف الز
(٢) هرو في حقل عمري المجرود
وانتشت روحي الكثبة بالحب
(٣) وغنت كالبلبل الفريد
أنت تحين في فؤادي ما قد
مات في أمسي السعيد الفقيد
وتشيدن في خرائب روحي
(٤) ما تلاشى في عهدي المجدود

-
- (١) يدوي : يسمع له صوت . الدوي : الصوت والرنين والصدى .
(٢) المجرود : المقفر الذي لا نبات فيه
(٣) الفريد : الشادي .
(٤) المجدود : المحظوظ ، المنعم .

من طموحٍ إلى الجمالِ إلى الفنِّ
 إلى ذلك الفضاء البعيدِ
 وتبتَّين رقَّةَ الشوق والأحـ
 لام والشدورِ والهوى في نشيدي^(١)
 بعد أن عازنتُ كآبة أيا
 مي فؤادي وألجمتُ تغريدي^(٢)
 أنت أنشودة الأناشيد غنا
 لكِ إلهُ الغناء رب القصيد
 فيك شبُّ الشباب وشَّحه السَّحرُ
 وشدوُّ الهوى وعطر الورد^(٣)
 وتراعى الجمال يرقص رقصاً
 قدسياً ، على أغاني الوجود
 وتهادت في أفق روحك أوزا
 نُ الأغاني ورقَّة التغريد
 فتأيلتِ في الوجود كلحنٍ
 عبقرى الخيال حلو النشيد

(١) الشدور : الغناء .

(٢) ألجمت : أسكت وأغرست .

(٣) وشَّحه : زينه .

خطواتٌ سكرانة بالأناشيد
 دِ وصوت كرجع نايٍ بعيدٍ^(١)
 وقوام يكاد ينطق بالألـ
 حانٍ في كلِّ وقفةٍ وقعود
 كلُّ شيءٍ 'موقع فيك' حتى
 لفظة الجيد واهتزاز النهود^(٢)
 أنتِ .. أنتِ الحياة في 'قدسها' السا
 مي وفي سحرها الشجيّ الفريدِ
 أنتِ .. أنتِ الحياة في رقة الفجـ
 دِ وفي رونق الربيع الوليد^(٣)
 أنتِ .. أنتِ الحياة كلُّ أوانٍ
 في رواءٍ من الشباب جديدٍ^(٤)
 أنتِ .. أنتِ الحياة ، فيك وفي عيد
 بكِ آيات سحرها الممدود

(١) الرجوع : الصدى .

(٢) موقع : منغم . الجيد : العنق . النهود : جمع نهد ، الصدر .

(٣) الرودق : البهاء والنضرة .

(٤) الرواء : البهاء والحسن .

أنتِ .. دنيا من الأناشيد والأحلام
والسحر والخيال المديد
أنتِ فوق الخيال والشعر والفن
وفوق النهى وفوق الحدود^(١)
أنتِ قدسي ومعبدي وصباحي
وربمي ، ونشوتي ووجودي

يا ابنة النور :

يا ابنة النور إنني أنا وحدي
مَن رأى فيكِ روعة المعبود
فدعيني أعيشُ في ظلك العذ
ب وفي قربِ حسنك المشهود
عيشةً للجمال والفن والإلهام
والطهر والسنا والسجود^(٢)
عيشةً للناسكِ البتول يناجي الر
بُ في نشوة الدهول الشديد^(٣)

(١) النهى : العقول .

(٢) السنا : الاشرار واللعان والاضاعة .

(٣) البتول : المنقطع عن الدنيا الى الله ، والمنقطع عن الزواج .

وامنحني السلام والفرح الرو
حي يا ضوء فجرى المنشود^(١)
وارحميني فقد تهدمت في كوة
ن من اليأس والظلام مشيد
أنقذيني من الأسى ، فلقد أم
سيت لا أستطيع حمل وجودي
في شعاب الزمان والموت أمشي
تحت عبء الحياة جيم القيود^(٢)
وأماشي الورى ونفسي كالقبة
سر ، وقلبي كالعالم المهدود^(٣)
ظلمة ما لها ختام ، وهول
شائع في سكونها المهدود
وإذا ما استخفني عبث النسا
س تبسمت في أسى وجود^(٤)

(١) المنشود : المرجو والمأمول .

(٢) شعاب : جمع شعب ، الطريق والمسلك .

(٣) أماشي : أصانع .

(٤) استخفني : حلفي على الجحون والهوى والطيش .

بسمةٌ مُرَّةٌ ، كَأَنِّي أُسْتَلُّ
 من الشوكِ ذابلات الورود^(١)
 وانفخي في مشاعري مرحَ الدن
 يا وشدي من عزمي المجهود^(٢)
 وابغثي في دمي الحرارة علي
 أتغنى مع المنى من جديد
 وأبثُ الوجود أنعامَ قلبِ
 بليليٍّ ، مكبلٍ بالحديد^(٣)
 فالصباحُ الجميل ينعشُ بالدف
 حياة المحطَّم المكدود^(٤)
 أنقذيني ، فقد سئمت ظلامي
 أنقذيني ، فقد مللت ركودي^(٥)

-
- (١) أُسْتَلُّ : انزع .
 (٢) المجهود : الجهد ، التعب .
 (٣) مكبَّل : مقيد .
 (٤) المكدود : الشديد الارهاق والمهروم .
 (٥) الركود : عدم الحركة وعدم التجديد والتغيير .

آه يا زهرتي :

آه يا زهرتي الجميلة لو تد
رين ما جدّ في فؤادي الوحيدِ
في فؤادي الغريبِ تخلقُ أكوا
نٌ من السحر ذات حسنٍ فريد
وشمسٌ وضياءٌ ونجومٌ
تنثر النور في فضاءٍ مديد
وربيعٌ كأنه حلم الشا
عر في سكرة الشباب السعيد^(١)
ورياضٌ لا تعرف الحلك الداء
جي ، ولا ثورة الخريف العتيد^(٢)
وطيور سحرية تتناغى
بأناشيد حلوة التغريد

(١) سكرة : نشوة .

(٢) الحلك : الظلام .

وقصورٌ كأنها الشفق الخد
ضوب أو طلعة الصباح الوليد^(١)
وغيومٌ رقيقةٌ تهادى
كأبديد من نثار الورود^(٢)
وحياةٌ شعريّةٌ هي عندي
صورة من حياة أهل الخلود
كلُّ هذا يشيده سحر عيني
لكِ ، وإلهام حسنك المبرد^(٣)
وحرامٌ عليك أن تهدمي ما
شاده الحسن في الفؤاد العميد^(٤)
وحرامٌ عليك أن تسحقي
مال نفس تصبو لعيش رغيد^(٥)

(١) الخضوب : المصبوغ بما يشبه لون الدم .

(٢) أبديد : مزق متناثرة .

(٣) يشيده : يصنعه ، يحققه .

(٤) العميد : المقيم ، العاشق .

(٥) تصبو : تتطلع وتهفو .

مِنْكَ تَرْجُو سَعَادَةً لَمْ تَجِدْهَا
فِي حَيَاةِ الْوَرَى وَسِحْرِ الْوُجُودِ^(١)
فَالْإِلَهَ الْعَظِيمَ لَا يَرْجُمُ الْعَبْدُ
دَعَاءً إِذَا كَانَ فِي جَلَالِ السَّجُودِ

(١) الْوَرَى : الْخَلْقُ .

القمر العاشق

للشاعر علي محمود طه

تسألني : وهل أحببتَ مثلي
وكم معشوقة لك أو خلية ؟
فقلت لها - وقد همت بكاسي
إلى شفيء راحتها النخيلة -
نسيتُ ، وما أرى أحببت يوماً
كحبك ، لا ، ولم أعرف مثيلة
فقلت لي ، جوابك لم يدع لي
إلى إظهار ما تخفيه حيلة
وفي عينيك أسرارٌ حيارى
تكذب ما تحاول أن تقوله !
فقلت : أجل ، عرفتُ هوى الغواني
لكلِّ غايةٍ ولها وسيله

إذا طالعني أنسيتُ جرحي
 وأن الحب لم يرحم قتيله
 وجاذبني إلى اللذاتِ قلبُ
 شقيّ ضلّ في الدنيا سبيله
 وعدت كما ترين صريع كأسٍ
 أنا الظمآن لم يطفئ غليله
 فقالت : كيف تضعف ؟ قلت : ويحي
 وكيف أطاع شمشون دليله ؟
 فقالت : ما حياتك ؟ قلت : حلم
 من الأشواق أوثرُ أن أطيله
 حياتي قصة بدأت بكأسٍ
 لها غنيّتُ ، وامرأة جميلة ا

أجل ، هذا هو مفتاح المفاتيح الى عالم الشاعر الملاح علي
 محمود طه ، إلى أعماق وجدانه ، ومسارب قلبه ، وحقيقة
 حبه ومعاناته ..

والمرأة في حياة علي محمود طه شيء أساسي ، لا غنى عنه ،
 وبدونه لا يكون للحياة معنى ، ولا للفن حياة ، ولا للشعر
 توهج أو حرارة ..

لقد عرف شاعرنا المتعرف ، الكثير الأسفار ، الباحث
أبدأ عن الجمال ينشده ويتصيد ، عرف الكثيرات من كل
لون وجنس ، وذاق شق الطعوم والصنوف ، وارتطمت تجاربه
بعشرات النماذج الإنسانية ، بين شهوة الجسد ومودة الروح
ومتعة الصداقة وبراءة التعاطف والرعاية .

والدارسون لشعر علي محمود طه ، والمتأملون فيه ، يرون
أنه كان دائم البحث في جسد المرأة ، لأن فيه اللذة وقد
اقتربت بعبادة الجمال ، كأنما المرأة - كانت بالنسبة إليه -
المعبر الرئيسي لكل شعور يبحث عن القيم الجمالية فيما وراء
الواقع الجامد وصوره الحسية ..

يقول عنه الناقد الراحل أنور المعداوي :

« هكذا كان علي محمود طه في حياته ، وهكذا كان في
شعره . لا تفرقة بين تذوق اللذة وبين تذوق الجمال ، ولا فصل
بينهما في عالم الشعور أو عالم منظور ، لقد عشق المرأة في
صورة الجسد اللذيذ وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى الجميل ،
ومن هنا امتزج الإحساسان في نفسه حتى لقد أصبحا وحدة
متماكة ليس إلى تجزئتها من سبيل ، إن فيه « الرجل » الذي
أقبل على المادة ، وإلى جانبه « الشاعر » الذي أقبل على
الروح ، وهما لوان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل
ولا يعترف بالأبعاد .. هناك رجل لا يستهويه من الزهرة غير
اللذة المجردة التي ينقلها إليه طيب الرائحة ، وهذا هو المزاج

العادي الذي يقصر التذوق على اللذة المادية، وهناك رجل آخر لا يقصر التذوق على مثل تلك اللذة ما دام إلى جانبها جمال تعشقه الروح ، لأن الزهرة عنده لونٌ وعطر ، لون يبهّر ، وعطر يفوح . وهذا هو المزاج غير العادي لأنه مزاج الفنان ، مثل ذلك الرجل الأول صاحب مزاج لا يمكنك أن تصفه بأنه مزاج رفيع ، لأنه يستقبل المشهد المادي ممثلاً في الزهرة بحاسة واحدة ، وكأن الحواس الأخرى قد فقدت وظائفها الرئيسية . هذه الحاسة الواحدة التي نعنيها هي حاسة الشم التي تبحث عن العطر ولا تبحث عن شيء سواه ، وسواء لديها وجدته في الزهرة أم وجدته في زجاجة العطر ما دامت كل منها تنفخ الشعور بنشوة الرائحة . لو اشتركت عنده حاسة النظر مع حاسة الشم لغدت الزهرة في إحساس العين والأنف ، وهي كما قلنا لون وعطر ، ولتحول هذا الإحساس الخارجي بعد ذلك إلى إحساس داخلي هو في لغة النفس لذة وجمال ، وهنا نجد المزاج الفني المرفف عند الرجل الأخير .

في مقدمة قصيدة له بعنوان : « هي وهو » يقول علي محمود طه :

« جمعتهما المصادفة فأحسّا بذلك الانعطاف الروحي البريء الذي يقرّب ما بين القلوب ويمزج بين الأرواح .. وأحسا باللهوة

العبيقة العريضة التي تفصل بينها ، فتحدث إليها عن ذلك الحب اليأس وألمه الممض ، وأن القدر لا يريد لها السعادة..

تري ، ما هي حقيقة تلك الفتاة التي أحبها علي محمود طه وأحبه وبعثت إلى لياليه بالسهد وإلى شعره بالحنين وإلى عينيه بالدموع ؟ وما هي حقيقة تلك الهوة العريضة التي يشير إليها ولا يفصح ، ويتحدث عنها ولا يبين ، تلك الهوة الرهيبة التي فغرت فاما لتلتهم أمله الكبير في امتداد الحياة ؟

يبدو من شعره في الحب - الذي يضم عصارة قلبه وخلصة نفسه ووجدانه - أنه على كثرة الغاديات والرائحات من حوله كان يبحث عن امرأة معينة ، امرأة تمثل في قلبه مكاناً خاصاً ظل منذ الطفولة وهو شاغر ينتظر ضيفه الحبيب ، لقد لقي المرأة وهي في ثوب الخلية ، ولقي المرأة وهي في ثوب الصديقة ، ولكنه لم يلق المرأة وهي في ثوب الأم ، هذه المرأة التي يمكن أن تشغل البقعة الخالية في وجوده الداخلي بخنان الأمومة ، لكم بحث عن هذا النموذج الأنثوي الذي يسد فراغاً تركته الأم وهو صغير ، حتى لقد ظل يتطلع إليه بلهفة الطفل التي لم ينزعها من بين جنبي الرجل تعاقب الأيام.. فقد الشاعر أمه الحانية ، ففضى العمر يبحث عن ظلها في صورة زوجة ، زوجة تشاطره الحياة ، وتنسي الطفل الكبير أنه يتيم !

والقصيدة التي نطالعها الآن للشاعر الملاح ، ليست قصيدة
حب مباشرة ، بقدر ما هي لوحة فنية فاتنة ، وصورة شعرية
نادرة ، رسمها الشاعر ، وافتن في إبداعها وإكسابها إيقاعها
الموسيقي الموائم ، وجرسها المنشود ، وألوانها وظلالها الرائعة ،
مخاطباً بها ذات الغلالة الرقيقة النائمة تحت نافذتها المفتوحة
في ليالي الصيف القمرية .

أول ما يشدهنا في هذه القصيدة الجميلة موسيقاها الداخلية
الأخاذة ، ليست موسيقى الرنين أو . رسيقي الألفاظ التي
تخاطب الأذن ، ولكنها موسيقى الهمس الشعري تهز مسارب
العاطفة وروافد الشعور ، اندفاعاً وتوقفاً ، انسياباً وتهديجاً ،
وإسراعاً وإبطاءاً ، ارتفاعاً أو انخفاضاً .. وفرق بين موسيقى
تنقل للشعور المتلقي لحظة الغضب ، وموسيقى 'تمثل' لحظة
الدهشة واللهفة أو لحظة الأسى والحنين .

ثم هذا القمر العاشق ، يصوره الشاعر ويبعد في تصويره ،
فإذا هو بالفعل عاشق يمتلئ حياة وصبوة واشتهاء ، يتسلل من
نافذة المحبوبة يتأمل جسدها الفاتن ويتحسس ، ويتوقف عند
مواطن الفتنة فيه ، والشاعر يمتلكه الغيرة الجاحمة من هذا
المتسلل الذي لا يملك له دفعا ولا رداً ، ومن هذا المتئيم الذي
سباه جمال الفاتنة وكأنما أعطى جمالها من قوة التأثير
ما استطاعت أن تغري به حتى الجراد ، فإذا بالقمر - وهو

مَنْ هو رفعةٌ وسناء وعلو منزلة ومكان - أسير جمالها ،
وعبد فتنها ، وتابع سلطانها ، تأمره وتتحكم فيه ، وتستبيه
وتصبيه !

وتتابع مقاطع القصيدة لنصل إلى حيث يصور الشاعر
هيام القمر العاشق وقد حاول أن يقبّل ثغر المحبوبة وأن
يلفّ نهدا وأن يضم الجسد .. فباءت محاولاته بالخيبة
والفشل ، ولم يصب منها شيئاً ، وكأن الشاعر يحاول أن يرضي
شعوره الدفين بالغيرة ، وأن يريح هواجس نفسه المشتعلة بالألم
وهو يرى القمر متسللاً إلى حيث لا يستطيع هو أن يصل أو
يشاهد أو يلمس .

والآن، مع القصيدة التي اخترناها من بين صفحات ديوانه:
« ليالي الملاح التائه » وهو ثاني دواوينه ، سبقه صدور ديوانه
الأول «الملاح التائه» ، ثم تتابعت دواوينه: «أرواح وأشباح»
و «أغنية الرياح الأربع» و «الشوق العائد» و «شرق وغرب»
و « زهر وخمر » ، حتى كانت وفاته عام ١٩٤٩ .

« القمر العاشق »

إذا ما طاف بالشرفة ضوء القمر المضئني
ورفء عليك مثل الحلم أو إشراقة المعنى

وأنت على فراش الطهر كالزنبقة الوسنى
فضمتي جسمك العاري وصوني ذلك الحسناء

أغار عليك من سابٍ كأنَّ لضوئه لنا^(١)
تدقُّ له قلوب الحور أشواقاً إذا غنى
رقيق اللبس عريده بكل مليحة يُعنى
جريءٌ إن دعاه الشوق أن يقتحم الحصنا

تحدّر من وراء الغيم حين رآك واستأنى^(٢)
ومسّ الأرض في رفقٍ يشقُّ رياضها الغنى
عجبتُ له وما أعجب كيف استلم الرصنا !
وكيف تسوّر الشوك ، وكيف تسلّق الفصنا !

(١) ساب : أسر بالحب . الحور : جمع حوراء . يقال : عين حوراء ؛
أي اشتد بياض بياضها وسواد سوادها .. وهذا من صفات الحسان .
(٢) تحدّر : نزل من علوه وارتفاعه . استأنى : تأنى وقهل ورفق .

على خديك خمرُ صباية أفرغها دنًا (١)
 رحيقُ من جنى الفتنة لا ينضب أو يفنى (٢)
 وفي نهديكِ طلسمانِ في حلّهما افتننا (٣)
 إلى كنزهما المعبود بات 'يمالج' الرُّدْنا (٤)

أغار، أغارُ إن قبّل هذا الثغر أو ثنى
 ولفّ النهد في لينٍ وضم الجسد اللدنا (٥)
 فإن لضوئه قلبا وإن لسحره جفنا
 يصيد الموجة العذراء من أغوارها وهنا (٦)
 وكم من ليلة لما دعاه الشوق واستدنى

(١) الدن : الكأس .

(٢) الجنى : الثمار .

(٣) طلسمان : لفزان .

(٤) الردن : أصل الكم ، وطرف الكم الواسع (أي أن القمر
 العاشق كان يحاول التسلل من داخل أكام الحناء) .

(٥) اللدن : اللين ، الناعم .

(٦) أغوارها : أعماقها البعيدة . وهنا : ضعيفا ، كسولا ، مترائيا ،
 أو هي بمعنى : الوقت بعد منتصف الليل .

جثا الجبارُ بين يديك طفلاً يشتكي الغَبْنُ (١)
أراد فلم ينل ثغراً ، ورام فلم يصب حِضْناً
حوَتَكَ ذراعهُ رسماً ، وأنت حوَيْتَهُ فنّاً

* * *

عصيت هواه فاستضرى كأنَّ بصدره جنّاً (٢)
مضى بالنظرة الرعناء يطوي السهل والحَزْنَ (٣)
يثيرُ الليلَ أحقاداً وصدرَ سحابِهِ ضغناً (٤)
وعاد الطفلُ جباراً يهزُّ صراعُهُ الكونا

* * *

(١) الغبن : الظلم .

(٢) استضرى : اشتعل وقرد واهتاج .

(٣) الرعناء : الحفاء أو الفوجاء . الحزن : المكان المرتفع الوعر من الأرض .

(٤) الضغن : الكراهية .

فردّي الشرفة الحمراء دون الهدع الأسنى (١)
وصوني الحسن من ثورة هذا العاشق المضنى
مخافة أن يظنّ الناس في مخدعك الظنّا
فكم أفلقت من ليلٍ وكم من قمرٍ جُنّا !

* * *

(١) ردي الشرفة : أغلقها . دون الهدع : أي لتعجب هذا الهدع
وتخفيه عن الأنظار (حتى لا يراه القمر العاشق) .

[الأطلال]

للدكتور إبراهيم ناجي

« هذه قصة حب عائر ، التقياً وتحاباً ، ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال بجسد ، وصار هو أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما حدثت . »

بهذه الكلمات ، يقدم الشاعر إبراهيم ناجي للمحمته الشعرية « الأطلال » ، التي يضمها ديوانه « ليالي القاهرة » ، ثاني دواوين الشاعر ، التي نُشرت في حياته ، أولها « وراء الغمام » صدر سنة ١٩٣٤ ، والثاني « ليالي القاهرة » صدر سنة ١٩٥١ ، أما الديوان الثالث « الطائر الجريح » فقد نُشر بعد أربع سنوات من وفاة الشاعر ، التي كانت في ٢٤ مارس عام ١٩٥٣ .

ولقد ظلت الأطلال عملاً شعرياً لا يعرفه إلا الخاصة من الدارسين وشُدادة الأدب ومتبعمي الشعر ، حتى أُتيح لبعض

مقاطعها أن تصل إلى أسماع الملايين على متن صوت أم كلثوم ،
عند ذلك ذاعت شهرتها، وتناقلتها الألسنة والأسماع، وأصبحت
أشهر ما تعيه ذاكرة العامة من شعر ناجي .

أما صاحب الأطلال ، فعلم شعري بارز في حركة الشعر
المصري الحديث ، ورائد من رواد جماعة أبولو التي ازدهر
نشاطها بعد إنشائها عام ١٩٣٢، والتي كان يرأسها أمير الشعراء
أحمد شوقي ، ويتولى أمانتها الدكتور أحمد زكي أبو شادي ،
تلك الجماعة التي أسهمت بدور بارز في تطوير الشعر الحديث ،
وربطه بالوجدان الانساني ، وأصبح لها طابعها المتميز ، متمثلاً
في شعر طائفة من شباب الشعراء ، كان ناجي ألمهم شاعرية
وأكثرهم أصالة وتمايزاً ، عرفوا بأصحاب الاتجاه الرومانتيكي
الفنائي ، وكان من بينهم أبو شادي وعلي محمود طه والهمشري
وحسن كامل الصيرفي وزكي مبارك وأحمد رامي وصالح جودت
وآخرون .

والمتأمل في شعر ناجي ، يطالع - أول ما يطالع -
هذا الطابع الحزين القاتم ، يضيف على قصائده مسحة من
الأسى والشحوب ، ويحمل هذا الطابع كل سمات الحزن
والانطواء والوجد والهيام والهروب والانطلاق والتمرد
والتعلق بالطبيعة والتشبث بالحب .

ولقد ساعدت حساسيته المفرطة ، ومزاجه الرومانتيكي ،
وبنيته الجسمية الضئيلة - فقد كان قصير القامة ضئيل الجسم
ساذج الملامح - ساعد ذلك كله في تأكيد هذا الحزن الكامن
في وجدانه ، المترسب في القرار البعيد من أعماقه ، مخلفاً
لديه شعوراً طفولياً ورغبة طفولية في أن يعاثر ويداعب كل
من يصادف من النساء ؛ ويفتح وجدانه بالفعل لكل زهرة
أنثوية يلتقي بها ، وكأنه كان ينشد أبداً حباً لا يجده ولا
يصل إليه، وتأكيداً لذاته كان يفترقه في نفسه ولدى الآخرين ،
وأنسى له - وهو على هذه الصورة - أن يكون فتي الأحلام
المرجو أو فارس النساء المعدود.

وفي قصيدته الطويلة ، أو ملحنته « الأطلال » كما يسميها ،
تطالعنا أيضاً خصائص فن ناجي وشاعريته : روح شعري
شفاف ، وصياغة بيانية مشرقة ، وتعبير آسر بالصورة الشعرية
المتنامية والمتآزرة وخيال مجنّح ، يصل بالتجربة الشعرية إلى
آفاق وتحموم لم تقتحم من قبل ، وقدرة خارقة على التصوير
والتجسيد والتجسيم ، وموسيقى شعرية تعتمر وجدان المتلقي
وهو يطالع مقاطع القصيدة ، ويتنقل بين روافدها المتجمعة ،
ويستمع إلى صوت الشاعر الأسيان المفجوع في مواجهة إرادة
القدر وصوت القضاء ، ثم وهو يخاطب الريح التي كانت تغري
قلبه إغراء النصيح الفاجر بالنسيان والتأسي ، والريح هنا
- في هذه القصيدة - رمز للشياطين الحاقدة ، تنهز الفرصة

لتسعى بنشر السموم ، ولكن هيبات ، فالشاعر مؤمن بقضائه
وقدره ، هذا القدر الذي تمثل له في وجه محبوبته ، شيء
خلق له من قبل أن يخلق هو ..

أيها الريح أجل ، لكننا
هي حبي وتعلّاتي ويأسي
هي في الغيب لقلبي خلقت
أشرقت لي ، قبل أن تشرق شمسي

وهو معترف بأن غرامه الحار المتوهج قدّر في طعم
الموت ، قدر مشنوم ، حول عمره إلى مآتم ، ولم يترك له من
عمر البهجة وأعراسها ساعة واحدة :

يا شغراماً كان منّي في دمي
قدراً كاللوت ، أو في طعمه
ما قضينا ساعة في عُرْسِه
وقضينا العمر في مآتمِه

ولكنه ، بالرغم من ذلك كله ، متعاطف أشد التعاطف
مع صرعى القضاء ، وضحايا المقادير ، يذوب قلبه حنوًّا
وألماً ومشاركة :

أيها الشاعر : كم من زهرة
عوقبت ، لم تدر يوماً ذنبها !

فإذا عدنا الى الأطلال وجدناها صورة صادقة الملامح لقصة
الحب المأساوية ، الدامية الختام .. تتماوج مقاطعها بكل ما في
قصص الحب ، من تذكّر ولوعة وحسرة ، ومواقف انطلاق
وصبوة وغفلة عن فعل الزمان وتبدل الأيام ، وافتتان بالحب
ذلك الذي يرقى بالإنسان الى عالم أسنى وأسمى ، فيدمن الرقي
والطموح نحو سماء غير منظورة ، ويلتقي الحبيبان في قمتها
المنفردة ، ويوحان بسرّيهما ، ويريان الناس من تحتها ظلالاً
في السفوح ، وفجأة يتغير الحال ، وتعبث المقادير ، ويضرب
القضاء ضربته ، وسرعان ما يهوي التمثال الذي صنعه العاشق
لنفسه ، من أحلامه وأوهامه ومطامحه وأشواقه وتصوراته ،
من أسى حرمانه وعنقوان تطلّعه ، ويصبح الحبيبان - في
غمضة عين - منفيين في فيافي الحياة ، وصحرائها ، يراجهان
الأشواك والصخور ، والجذب والظلام والحطوط السود والليل
الضريّر ، وتملأ الهواجس نفس العاشق ، وتتجاوز معه
الكائنات . ماذا عليه لو نسي أو تناسى ؟ ماذا عليه لو ودع
هذا الغرام اليائس وهذا الحب القاتم المدمر ؟ وتهمس الريح
في أذنيه بنصحها الشرير : إن من حوله القلوب والنساء بعدد
الرمل ، فليتخير من يشاء ، وليبدأ من جديد صفحة حبه
الجديد ، وليؤمن من الآن أن الناس جميعاً من طين وماء ،
فأبناء السماء لا يعيشون على الأرض !

لكن الشاعر العاشق لا يستمع إلى هذا كله ، ولا يفتح له

نوافذ قلبه ، إنه مؤمن بقدره ، محتضن لقضائه ، مستسلم للنهاية
الأليمة الفاجعة :

فإذا أنكر خيل* خله*
وتلاقينا لقاء الغرباء*
ومضى كل* إلى غايته
لا تقل شئنا ، فإن* اللحظة شاء*

* * *

هذه هي الأطلال ، ملحمة ناجي ، ولوحة حبه الأخاذة
الرائعة ، الناطقة بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيد ،
والتعبير عن المعنويات في صورة المحسوسات ، ورسم الجو
العاطفي والنفسي المحيط بالمشهد في بكافة أبعاده وعناصره ،
وقدرته على توفير الايقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس
والشعور بسطاً وانقباضاً ، إشراقاً وقمامة ، انطلاقاً وعبوساً ،
ثم على تنويع هذه الايقاعات كما فعل في المقاطع التي ضمنها
حديث الريح وهمسها الى الشاعر عندما تخيلها تنصحه وتعاتبه
على التماذي في الحب المعذب ، فقد صاغ الشاعر مقاطعه هذه
من بحر الرمل - الذي نظم منه قصيدته كلها - ولكن من
مجزوء. البحر وليس من البحر بكامل تفاعيله ، فجاء هذا
التنوع الموسيقي انعكاساً للتنوع التعبيري والشعوري في مواقف
التجربة الشعرية ، ومفرداً بين طبيعة الفقرات التي يتحدث

فيها الشاعر بنفسه ، والفقرات التي يترك فيها عنان
الحديث لغيره .

يبقى بعد ذلك أن نشير الى طبيعة هذا البحر الشعري
الذي صاغ منه ناجي ملحمة الشعرية : « بحر الرمل » ،
فالمعروف أنه من البحور الهادئة الموسيقى ، المهموسة الإيقاع ،
الملائمة كل الملائمة لمثل هذه التجربة الشعرية العميقة التي عبّر
عنها ناجي أجمل تعبير ، وصوّرها أروع تصوير .

الأطلال

« هذه قصة حب عائر ، التقيا وتحابا ، ثم انتهت
القصة بأنها هي صارت أطلال جسد ، وصار هو
أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما
حدثت » .

يا فؤادي ، رحم الله الهوى
كان صرحاً من خيالٍ فهوى^(١)
أسقني واشرب على أطلاله
وارزّ عني ، طالما الدمع روى

(١) الصرح : القصر أو البليان العظيم الشامخ .

كيف ذاك الحبُّ أَمسى خبراً
 وحديثاً من أحاديث الجوى
 وبسائطاً من نَدَامَى حُلُمٍ
 هم تواروا أبداً ، وهو انطوى

يا رياحاً ، ليس يهدا عصفُها
 نَضَبَ الزيتُ ومصباحي انطفأ^(١)
 وأنا أقتاتُ من وهمٍ عفا
 وأفي العُمَرَ للناسِ ما وفى^(٢)
 كم تقلبتُ على خنجره
 لا الهوى مال ، ولا الجفنُ غفاً
 وإذا القلبُ - على عُفرانه -
 كلما غارَ به النصلُ عفا^(٣)

(١) نضب : نفذ وانتهى .

(٢) عفا : رحل وانقشع .

(٣) النصل : طرف الرمح أو السهم .

يا غراماً كان منّي في دمي
 قدراً كالموت ، أو في طعمه
 ما قضينا ساعةً في عرسه
 وقضينا العمرَ في مأتمه
 ما انتزاعي دمةً من عينه
 واغتصابي بسمةً من فيه
 ليت شعري أين منه مهربي
 أين يمضي هاربٌ من دمه ؟

* * *

لستُ أنساكِ وقد ناديتني
 بغمٍ عذبٍ المنادة رقيقٌ
 ويدٍ تمتدُّ نحوي ، كيدٍ
 من خلال الموجِ 'مدّت' لغريقٍ
 آه يا قبلةً أقدامي ، إذا
 شكّت الأقدامُ أشواكَ الطريق
 وبريقاً يظلمُ الساري له
 أين في عينيكِ ذبّاك البريق؟^(١)

* * *

(١) الساري : السافر ليلاً .

لست أنساكِ ، وقد أغريتيني
 بالذرى الشم ، فأدمنت 'الطموح'^(١)
 أنتِ روحٌ في سمائي ، وأنا
 لكِ أعلو ، فكأنني محضُ روح
 يا لها من قممٍ كنا بها
 نتلاقى ، وبسرّينا نبوح
 نستشفُّ الغيبَ من أبراجها
 ونرى الناسَ ظلالاً في السفوح

أنتِ 'حسنٌ' في ضعاه لم يزل
 وأنا عندي أحزانُ 'الطفّل'^(٢)
 وبقايا الظلّ من ركبٍ رحل
 وخيوط النور من نجمٍ أفل
 ألمح الدنيا بعيني سيم
 وأرى حولي أشباحَ الملل

(١) الذرى الشم : القمم المرتفعة ، يقصد بها الآمال والأهداف
 الرفيعة .

(٢) الطفّل : وقت الغروب .

راقصاتٍ فوق أشلاء الهوى
مُمولاتٍ فوق أحداث الأمل^(١)

* * *

ذهب العمرُ هباءً ، فاذهي
لم يكن وعدك إلا شبحاً
صفحة قد ذهب الدهر بها
أثبت الحب عليها ومحا
انظري ضحكي ورقصي فرحاً
وأنا أحمل قلباً مُذبحاً
ويراني الناس روحاً طائراً
والجوى يطحنني طعن الرّحى^(٢)

* * *

كنت تثال خيالي ، فهوى
المقادير أرادت لا يدي
ويحها ، لم تدرِ ماذا حطمت
حطمت تاجي ، وهدت معبدي

(١) أحداث : قبور ، جمع جدث . مُمولات : باكيات بشدة .

(٢) الرّحى : الطاحون .

يا حياة اليأس المنفردِ
يا يباباً ما به من أحدٍ (١)
يا قفاراً لافحاتٍ ما بها
من نجى ، يا سكون الأبد (٢)

* * *

أين من عيني حبيبٌ ساحرٌ
فيه نبلٌ وجلالٌ وحياء
وائق الخطوةِ يمشي مَلَكاً
ظالم الحُسنِ ، شهيد الكبرياء
عبقُ السحرِ كأنفاس الرّبي
ساممُ الطرف كأحلام المساء
مشرقُ الطلعة ، في منطقهِ
لغة النور ، وتعبير السماء

* * *

أين مني مجلسٌ أنتَ به
فتنةٌ قمتَ سناء وسنى

(١) اليباب : القفر ، الخراب .
(٢) نجى : أنيس ، رفيق يفضي إليه بالنجوى .

وأنا حبٌ وقلبٌ ودمٌ
وفراشٌ حائرٌ منكِ دنا
ومن الشوق رسول بيننا
ونديمٌ قدم الكأس لنا
وسقانا ، فانتفضنا لحظةً
لفبارِ آدميٍّ مستا (١)

* * *

قد عرفنا صولة الجسم التي
تحكم الحيّ ، وتطفئ في دماه (٢)
وسمنا صرخةً في رعدما
سوطُ جلّاد ، وتعذيبُ إله
أمرتنا ، فعصينا أمرها
وأبيننا الذلّ أن يغشى الجباه
حكم الطاغى ، فكنتا في العصاة
وطردنا خلف أسوار الحياة

* * *

(١) الفبار الآدمي : يقصد به نشوة الجسد وشهوته .

(٢) صولة : سطوة وقهر وغلبة .

يا لمنفيينِ ضلّا في الوعورِ
 دميًا بالشوك فيها والصخور
 كلما تقسو الليالي ، عرفًا
 روعة الآلام في المنفى الطهور
 طُردا من ذلك الحلم الكبير
 للحظوظ السود، والليل الضير^(١)
 يقبسان النور من روجيهما
 كلما قد ضنت الدنيا بنور^(٢)

* * *

أنتِ قد صيرتِ أمري عجبًا
 كثرت حولي أطيّار الرُبى
 فإذا قلتُ لقلبي ساعةً
 قمْ فغرد لسوى ليلي أبى
 حجبٌ تأبى لميني مأربا
 غيرَ عينيك ، ولا مطلبًا

(١) الضير : الأعمى ، والمراد به الشديد الظلمة

(٢) يقبسان : يستمدان ويستلھان .

أنتِ من أسدّها ، لا تدّعي
أنني أسدلتُ هذي الحجاب^(١)

* * *

ولكمّ صاح بي اليأسُ انتزعها
فبردُ القدرُ الساخر : دَعها
يا لها من خطّةٍ عيياء ، لو
أنني أبصر شيئاً لم أطعها
وليّ الويلُ إذا لبّثتها
وليّ الويل إذا لم أتبعها
قد حنّت رأسي ، ولو كلّ القوى
تشتري عزّة نفسي ، لم أبعها

* * *

يا حبيباً 'زرت' يوماً أيكه'
طائرَ الشوق ، أغنّني ألمي^(٢)

(١) الحجب : الستائر والموانع .

(٢) الأيكه : الشجرة الكثيفة المتلفة ، وهي رمز للكان الذي
يظل العشاق .

لَكَ إِبْطَاءُ الدَّلَالِ الْمَنَعِ
وَتَجَنَّبِي الْقَادِرِ الْمُحْتَكِمِ^(١)
وَحَنِينِي لَكَ يَكْوِي أَعْظَمِي
وَالثَوَانِي جَمْرَاتٍ فِي دَمِي
وَأَنَا مَرْتَقِبٌ فِي مَوْضِعِي
مَرْهَفُ السَّمْعِ لَوْعَةِ الْقَدَمِ

قَدَمٌ تَخْطُو ، وَقَلْبِي مِثْلُهُ
مَوْجَةٌ تَخْطُو إِلَى شَاطِئِهَا
أَيُّهَا الظَّالِمُ : بِاللَّهِ إِلَى كَمِ
أَسْفَحِ الدَّمْعِ عَلَى مَوْطِئِهَا
رَحْمَةٌ أَنْتَ ، فَهَلْ مِنْ رَحْمَةٍ
لِفَرِيبِ الرُّوحِ أَوْ ظَامِئِهَا
يَا شِفَاءَ الرُّوحِ ، رُوحِي أَتَشْتَكِي
ظَلَمَ آسِيهَا ، إِلَى بَارِئِهَا^(٢)

(١) تَجَنَّبِي : ظَلَمَ وَقَسْوَةً .
(٢) الْآسِي : الطَّيِّبُ ، وَالْمَدَاوِي : الْبَارِئُ ، الْخَالِقُ ، أَرِ الَّذِي تُشْفِي
مِنْ مَرَضِهِ .

أعطني حريق أطلق يديّ
إنني أعطيتُ ما استقيتُ شيّ
آه من قيدك أدمى معصيّ
لم أبقيه ، وما أبقى عليّ ؟
ما احتفاظي بمهودٍ لم تصنها
ولامَ الأسرُ ، والدنيا لديّ (١)
هاأنا جفّت دموعي ، فاعفُ عنها
إنها قبلك لم 'تبذلْ لحيّ

وهب الطائرَ من عُشِّك طارا
جفّت الغدرانُ ، والثلجُ أغارا
هذه الدنيا قلوب جمدت
خبث الشعلةُ ، والجمرُ توارى
وإذا ما قبس القلب غدا
من رمادٍ ، لا تسله كيف صار (٢)

(١) الأسر : الحبس والسجن .

(٢) القبس : شعلة النار .

لا تسل ، واذكر عذابَ المصطلي
وهو يذكيه ، فلا يقبس ناراً^(١)
* * *
لا رعى الله مساءً قاسياً
قد أراني كلَّ أحلامي سدى
وأراني قلباً من أعبدُه
ساخراً من مدمعي سخرَ العدا^(٢)
ليت شعري ، أي أحداثٍ جرت
أنزلت روحك سجنًا موصداً^(٣)
صدت روحك في غيبها
وكذا الأرواحُ يعلوها الصدا^(٤)

* * *
قد رأيتُ الكونَ قبرا ضيقاً
خيمَ اليأسُ عليه والسكوتُ
ورأت عيني أكاذيبَ الهوى
واهياتٍ كخيوطِ العنكبوت

(١) المصطلي : من يوقد النار بقصد الاستدفاء .

(٢) سخر : سخرية .

(٣) موصداً : مغلقاً .

(٤) الغيب : الظلام .

كنت ترثي لي ، وتدري ألمي
لو رثى للدمع تمثال صموت
عند أقدامك دنيا تنتهي
وعلى بابك آمالٌ تموت

كنت تدعوني طفلاً ، كلما
ثار حيي ، وتندت مقلي^(١)
ولك الحق ، لقد عاش الهوى
في طفلاً ، ونما لم يعقل
وأرى الطعنة إذ صوبتها
فشئت مجنونةً للمقتل
رمت الطفل ، فأدمت قلبه
وأصابت كبرياءَ الرجل

قلتُ للنفس وقد جزئنا الوصيда
عجتي لا ينفع الحزمُ وثيدا^(٢)

(١) تندت : ابتلّت بالدموع .

(٢) الوصيـد : المر الضيق المطبق .

ودعي الهيكلَ شئتُ ناره
تأكل الركعَ فيه والسُّجودا
يتمنى لي وفائي عودةً
والهوى المجرَّح يأبى أن نعودا
لي نحو اللهب الذاكبي به
لفتة العودِ إذا صار وقوداً^(١)

لستُ أنسى أبداً ساعةً في العمرِ
تحت ريح صفقتُ لارتقاصِ المطرِ^(٢)
نوحْتُ للذكرِ وشكتُ للقمرِ^(٣)
وإذا ما طربت عربدت في الشجرِ
هالكاً ما قد صبتُ الريحُ بأذن الشاعرِ
وهي تغري القلبَ إغراءَ الفصيح الفاجرِ :
« أيها الشاعر تغفو تذكر العهدَ وتصحو
وإذا ما التام جرح جدُّ بالتذكُّر جرح^(٤) »

(١) الذاكبي : المشتعل ، المتأجج .

(٢) ارتقاص المطر : حركة المطر أثناء انهياره بغزارة .

(٣) الذكر : الذكريات .

(٤) التام : التأم ، أي برئ وشفئ .

فتعلّم كيف تنسى وتعلّم كيف تحو
أو كلّ الحب في رأ يكّ غفرانٌ وصفح ؟

* * *

هاك . فانظر عدد الرملِ قلوباً ونساء
فتخيّر ما تشاء ذهب العمرُ هباء
ضلّ في الأرض الذي ينشدُ أبناء السماء
أيّ روحانية تعد صر من طينٍ وماء !

* * *

أيها الريح أجّل ، لكنّما
هي حبّي وتعلّاتي ويأسي
هي في الغيب لقلبي خلقت
أشرقّت لي ، قبل أن تشرق شمسي
وعلى موعدها أطبقتُ عيني
وعلى تذكّرها وسّدتُ رأسي

جئت الريح ونادته شياطين الظلام
أختاماً ! كيف يحلو لك في البدء الختام ؟
يا جريحاً أسلم . الجرح حبيلاً نكأه
هو لا يبكي إذا الناعي بهذا نبأه

أيها الجبار هل تُصرع من أجل امرأه ؟

يا لها من صيحةٍ ما بعثت
عنده غير أليم الذكر^(١)
أرقت في جنبه ، فاستيقظت
كبقايا خنجر منكسر
لمع النهر وناداهُ له
فمضى منحدرًا للنهر
ناضبًا الزاد ، وما من سفر
دون زادٍ غير هذا السفر^(٢)

يا حبيبي كل شيء بقضاء
ما بأيدينا 'خلقنا' نساء
ربما تجمعنا أقدارنا
ذات يومٍ بعدما عزَّ اللقاء
فإذا أنكر خلُّ خلِّه
وتلاقينا لقاء الغرباء

(١) الذكر : الذكريات .

(٢) ناضب : فارغ .

ومضى كلٌ إلى غايته
لا تقل شئنا، وقل لي الحظُّ شاء!

يا مُغْنِي الخلد ، ضيّعتَ العُمُرُ
في أناشيدٍ تُغْنِي للبشرُ
ليس في الأحياء من يسمعا
ما لنا لسنا نغني للحجرِ !
للجُماداتِ التي ليست تعي
والرمياتِ البوالي في العُفر^(١)

غنىها ، سوف تراها انتفضت
ترحم الشادي ، وتبكي للوترِ

يا نداءً كما أرسلته
رُددٌ مقهوراً وبالخطِّ ارتطم

وهتافاً من أغاريد المنى
عاد لي وهو نواحٍ وندم

رُبَّ قَتالٍ جالٍ وسنا
لاح لي والعيش شجو وظلم

(١) الرميات البوالي : الجثث البالية ، يقصد الموتى .

ارتقى اللحن عليه جاثياً
ليس يدري أنه 'حسن أصم' (١)

هدأ الليلُ ولا قلب له
أيها الساهر يدري حيرتك
أيها الشاعر خذ قيثارتك
غنْ أشجانك ، واسكب دمعك
رباً لحنٍ رقص النجمُ له
وغزا الشُحْبَ ، وبالنجمِ فتك
غنّه ، حتى ترى ستر الدجى
طلع الفجرُ عليه فانتهك

وإذا ما زهرات 'ذعرت
ورأيت الرعب يغشى قلبها
فترفق واتند واعزف لها
من رقيق اللحن ، وامسح رعبها

(١) جاثياً : راکماً .

ربما نامت على مهد الأسي
وبكت مستصرخات ربها
أيها الشاعر ، كم من زهرة
عوقبت ، لم تذّر يوماً ذنبها !

أقبلي كالصلاة

للشاعر محمود حسن إسماعيل

هو الشاعر الوحيد - من بين شعرائنا الأحياء^(١) الذي
آثرت أن اضمّن هذه المجموعة إحدى قصائده العاطفية ، بل
أحلى ما قاله في الحب : قصيدته « أقبلي كالصلاة » ، التي
يضمها ديوانه « هكذا أغني » الذي صدر عام ١٩٣٧ ، وقبله
كان الديوان الأول « أغاني الكوخ » عام ١٩٣٤ ، ثم تتابعت
رحلة الشاعر الثرية والخصبّة من خلال دواوينه : أين المفر ،
نارٌ وأصفاد ، قاب قوسين ، لا بدّ ، التائهون ، صلاة ورفض ،
نهر الحقيقة ، وهدير البرزخ .

في شعر محمود حسن إسماعيل مذاق خاص ، ما أسرع
ما يضافحنا ونحن نتأمل كلماته وأنغامه ، مذاق يختلط فيه
عبير صعيد مصر ، بروائح الريف المصري ، بطقوس العبادات
المتراكمة على ضفتي الوادي على مدار التاريخ السحيق ، فرعونية
وقبطية وإسلامية ، ويختلط فيه أيضاً تكوين الشاعر المتكسّ

(١) توفي الشاعر عام ١٩٧٧ .

على ثقافة شرقية إسلامية ، ترفدها تطلعات الشاعر المستمرة الى الانفتاح على آفاق التجربة الشعرية المعاصرة ، في الوطن العربي ، وعلى الصعيد الانساني كله .

هذا المذاق الخاص ، المتميز ، المركّب ، هو الذي يجعلنا نكتشف أن لشعر محمود حسن إسماعيل قاموساً خاصاً ، قاموساً فريد الدلالات والإيماء ، عميق الهمس بالصور والرموز ، لا بدّ من اكتشاف أغوار الشاعر - الضاربة الأعماق في التاريخ والحياة - للوصول إلى حقيقة هذه الدلالات ، وإعطائها ما يطابقها في عالم الصحو ، عالم النثر اليومي ، معانيها المباشرة ، وإلا ظلت مغاليت هذا القاموس الشعري متأبّيةً علينا لا تمنحنا نفسها ، ولا تكشف لنا عن حقيقة مراميها ، قبل أن نستطيع الكشف عن نوعية هذا الشاعر المميز ، وطبيعة وجدانه الشعري المتكاثف ، المتعدد الدوائر والروافد والأصول .

يلفت النظر في شعر محمود حسن إسماعيل أيضاً ، فضلاً عن هذا المذاق الخاص والقاموس الشعري الخاص ، مصريته ، طابعه المتناغم مع روح الانسان المصري في صدامه وارتطامه مع بعدي الزمان والمكان ، هذه المصرية شيء أكبر من مجرد الاهتمام التسجيلي بظواهر الحياة أو البيئة ، أعمق من مجرد تناول مألوف الحياة على وجه هذا الوادي في أشجارها ونباتاتها وألوانها ، إنها نفاذ الى السر البعيد في وجدان الانسان ، قدرة

على استكناه الأغوار البعيدة في أعماقه ، تلك الأغوار التي يتاح لشتى الروافد والجداول أن تصبّ فيها ، وسرعان ما تتمثلها ، وتحفظ لنفسها - بعد ذلك - سمّتها الأصيل غير مشوب ، وإن أصبح أكثر ثراءً وعمقاً وخصوبة .

هذه المصرية كامنة أعمق الكون فيما يمكن تسميته بـ «السر» هذا الخاطر الكوني الملحّ على محمود حسن إسماعيل : الشاعر والإنسان ، وهو السرّ نفسه الذي استوقف المصري القديم أمام تجربة الشروق والغروب فبنى الأهرام واكتشف معنى الخلود ، وأمام فيضان النيل والمحساره فعبد النيل وقُدّس الحياة ، واستوقف المصري الحديث أمام هتاف المآذن ورنين أجراس الكنائس ودوران دولاب الحياة على ظهر هذا الوادي المثقل بترامكات السنين وأعباء الأزمنة وميراث الأجيال . وما يزال السر الغامض لفضاً ، لكنه في أعماق شاعرنا إغراء يقظ ، ونداء صامت أخرس ، وتوهج دام في لحظات الغيبوبة الروحية ، والانسلاخ من نثر الواقع اليومي ، بحثاً عن شعر الحياة في ليلها الساكن الوديع .

وبالإضافة إلى المذاق الخاص والقاموس الشعري المتفرد ، والبحث الدائب عن السرّ ، تقمصاً وتعبيراً ، إفضاءً وخوفاً من التصريح ، يدهشنا في شعر محمود حسن إسماعيل هذه الرؤية الكلية للإنسان والحياة ، إن التجارب الشعرية عنده تستمد قيمتها وغناها من هذا الإطار الأكبر الذي نطالها فيه ،

فيبدو الجزء في إطار الكل ، وتكتسب التفاصيل الصغيرة معناها الدائم والسرمدي ، ويصبح الإنسان المنفرد على ظهر هذا الكوكب وتراً في لهاة الطبيعة وبضعة من الإرادة العليا القاهرة ، وحصة في جسر الوجود البشري المتراكم ، وبنفس القدر : تصبح الشجرة المنفردة صوتاً شعرياً يضح بجداء الطبيعة للكون ، وترديداً لصوت الرياح المعبر عن ملحمة الوجود والعدم وهكذا ..

محمود حسن إسماعيل إذن هو شاعر التجارب الكبرى ، شاعر الرؤى الكونية الشمولية ، شاعر ما وراء الجزئي والمنزل والمنظور ، إن - شيئاً ما - يستهوي دائماً بصيرته الشعرية النفاذة ، فإذا هو يطالع في الوجه الواحد عشرات الوجوه ، وفي المعنى الواحد عشرات التنويعات من المعاني ، وفي الصوت الواحد جنازة كاملة من الأصوات أو سيمفونية متداخلة - ربما غير متجانسة - من الحوارات !

ترى ، إلى أي مدى يكشف محمود حسن إسماعيل من خلال رحلته الشعرية المتنامية ، المثقلة بهبات العطاء الشعري الرفيع عن هذا السر ؟ عن إطار هذه الرؤية الكونية ! متى يُفصح الشاعر عن محاور قلقه العميق ، ووتر شجنه الكونيّ المأساوي ، ويضع أيدينا على حائط مبعاه الحقيقي دون جزع أو خجل أو وجل ؟

أنا والناي والحياة

وسرّ في طوايا النفوس 'يخفيه برقع !
 كلما سلّه شعاعي من الليل ،
 على موضعٍ ، 'يداريه موضع
 لستُ في حَيْرَةٍ ، ولا في وقوف
 فمع اللهِ نظرتي تتطلع
 كلما فرّ طائرٌ ، حاصرتُهُ ..
 فأناها من حالِكِ التّيه يخشع
 هدأةٌ .. وانطلاقةٌ
 وإذا النورُ على الدّرْبِ
 يستهلّ ، ويسطع !

وتأملوا معي بعض عناوين دواوينه : قاب قوسين ،
 لا بدّ ، صلاة ورفض ، نهر الحقيقة ، هدير البرزخ ، لتدركوا
 أي ريح تملأ هذا الشراع ، وأية وجهة يقصدها هذا الملاح
 المغامر ، الضارب أبداً في عُباب المجهول !

ولكن لماذا هذه القصيدة بالذات .. « أقبلي كالصلاة » !
 إنها ليست من ديوانه الذي أفردّه بكامله لتجربة حبه العظيم
 المدمّر ، هذا الحب الذي عصّف به الشك ، فدمّر جدران
 معبده ، وزلزل قوائمه محاريبه - ديوان « أين المفرّ » ..
 وليست من شعره الأخير ، الذي يتآزر فيه نضج التجربة ،

واكتمال الأدوات الشعرية ، ووفرة المواد الأولية التي أتاحت
للشاعر ، الذي أصبح أقل خشونة وقسوة مع نفسه ومع
الحياة ، وإن كان أشد توهجاً بحقيقة الشعر ومتطلبات الفن .

ربما كان اختياري لها السبب ذاتي محض ، فديوان « هكذا
أغني » هو أول ما وقعت عليه من شعر محمود حسن إسماعيل ،
كنت وقتها حدثاً غريباً ، مفتوناً بشعراء المدرسة البيانية
المحافظة ، القوية النسيج ، الرصينة القوافي ، الجزلة التعبير : من
أمثال شوقي وحافظ والجارم ، وكما يتميز الضد بالصد ، فقد
تمايز في نفسي شعر محمود حسن إسماعيل على الفور ، واستهواني ،
فانكببت عليه وأعرضت عما سواه ، وكان دليلي - فيما بعد -
إلى حساسية الشعر المعاصر كله بوجه عام ، والشعر الجديد . .
بوجه خاص .

في ذلك العهد كانت قصيدة « أقبلي كالصلاة » مزموراً
للحب ، نتناشده فيما بيننا ، ونترنم بإيقاعاته وموسيقاه ،
المتددة ، الطويلة النفس ، ثم اختطفتنا صور القصيدة ولوحاتها
الشعورية المتتابعة : صورة الزورق الشريد الحيران في مهب
الريح العاتية تحت جناح الدياجير ، والشاطئ المرجى بعيد . .
ولا أمل يلوح ، وصورة الأيكة الوارفة الظلال تمنح الأمان
والسكينة ، والواحة السخية يفيء إليها العاشق المُجهد هرباً
من هجير الأسى ، وصورة الفجر منسكباً على الحقل يمنحها
حياةً وصلابةً ونشوةً وتهللاً ، وصورة أنسام الفجر ترفرف

وتذوب على حفيف السنابل ساكبة شعر الحياة الهامس المجنح،
 وصورة هذه الـ « أنت » التي يكررها الشاعر في مستهل ثمانية
 عشر بيتاً من قصيدته ، كل بيت منها ينطق بقسمة من فسمات
 هذه الحبيبة ويضفي لوناً إلى لوحتها الأخاذة الفاتنة ، وهي
 تذكرنا بصورة الـ « أنت » التي صاغها أبو القاسم الشابي في
 رائعته « صلوات في هيكल الحب » والتي استهل بها أيضاً
 اثني عشر بيتاً من أبيات قصيدته ، كما يذكرنا البحر الشعري
 لقصيدة محمود حسن إسماعيل بالبحر الشعري: النفسي والنفسي
 الذي صيغت منه قصيدة الشابي وهو « بحر الخفيف » ،
 بتفصيلاته المسترخية الممتدة كأنها حركة مجذاف يضرب وجه
 الماء في هدوء ودعة وانسياب ، كذلك تذكرنا صرخات محمود
 حسن إسماعيل ونداءاته في ختام قصيدته واستغاثاته المتتابعة
 بحبيبته التي يراها قادرة على أن تمنحه الحياة والإبداع والطموح:

فتعالى نغيبُ عن ضجة الدند
 يا ، ونغضي عن الوجود ونرحل
 وإلى عُشنا الجميل ، ففيه
 هزجُ الهوى ، وظلُ وجدول
 أقبلي .. قبل أن تميل به الريد
 -ح ، ويهوي به الفناء المُعجِّل
 أقبلي .. فالجراح ظمأى ، وكأسُ الـ
 حُبِّ تكلنى ، والشعرُ نايٌ مُعطلٌ

تذكرنا صرخات هذا الختام ، بصرخات الشابيّ ونداءاته
المتتابعة أيضاً في ختام قصيدته :

أنقذيني ، فقد سئمتُ ظلامي
أنقذيني ، فقد مللتُ ركودي

ثم وهو يقول :

وحرامٌ عليك أن تهدي ما
شاده الحسن في الفؤاد العميدِ

وحرامٌ عليك أن تسحقني آ
مالَ نفسٍ تصبو لعيشٍ رغيدِ

فالإلهُ العظيمُ لا يرحمُ العبثَ
دعاً ، إذا كان في جلال السجودِ

* * *

يبقى أن نتّاحَ لهاتين القصيدتين دراسةً نقديةً مقارنةً ،
تكشف عما بينهما من مناخ نفسي مشترك ، ونخطيط شعري
متماثل ، كما تكشف عما فيهما من تفرّد وتمايز وأصالة ، وكلتاها
صادرة عن وجدانٍ شعري عميق ، ممتلئ بتجربة الحياة ،
شديد الحساسية لإيقاعات الكون ، متلاحم النسيج مع صور
الطبيعة وظلالها ، فناءً صوفياً ، وانجذاباً روحياً ، ونزوعاً
إلى التطهير والتطهر في محراب الطبيعة ، وديرتها الأقدس ،

وهي نزعة حارة متوهجة، نطالها دائما في أشعار الرومانتيكيين
الكبار ، الذين كانت لهم صلواتهم وغنائياتهم وأشواقهم
حُلماً دائماً ينشد الالتحام بالطبيعة والفناء فيها والتطهر من
خلالها ..

ولسوف يجد النقد المقارن في تأمله لهاتين القصيدتين وكشفه
عن عالم الشاعريتين من خلالها ، قيماً فنية جديدة بالدراسة
والتنويه ، وبأن توضع بين أيدي شدة الأدب ودارسيه وأمام
أبصارهم ، متضمنة لونا من النفاذ إلى أعماق الإبداع الشعري
في أصفى حالات تدفقه وانسيابه ، وأكثرها عذوبة وجالا
وشغافية ..

'نرى ، متى يقدرُ لشعرنا العربي أن يغني بمثل هذه
الصرخات الكونية الحارة ، المتوهجة بنفاذ الرؤية الشعرية
والوعي الإنساني ، وأن تضاف إلى « ديوان الحب » فيه مثل
هذه التراتيل الصادقة النفاذ ، العميقة الهمس ، الثرية العطاء !

* * *

أقبلي كالصلاة

أقبلي

أقبلي كالصلاة ، رقرقها النس
ك' ، بحراب عابد متبتل

أقبلي آية من الله علينا
زفها للوجود وحي منزل

أقبلي ، فالجراح ظمأى ، وكأس ال
حب ثكلى ، والشعر ناي معطل

أنت لحن على فمي عبقرى
وأنا في حدائق الله بلبل

أقبلي .. قبل أن تميل بنا الريد
ح' ، ويهوي بنا الفناء المعجل

زورقي في الوجود حيران شاك
مثقل بامس ، شريد ، مضلل

أزعجته الرياح ، واغتاله اللّـي
ل' ، ينجح من الدياجير مُسبل^(١)
فهو في ثورةِ الحُضْمِ غريبٌ
خَلَطَ النُّوحَ بالمنى وتنقَل^(٢)
أقبلي يا غرامِ روحي ، فالشطُّ
بعيد ، والروح باليأس مثقل
وغمام الحياة أعشى سوادي
ونور المنى بقلي ترحل^(٣)
أنا مَيّتٌ تغافل القبر عني
وهو إن يدرِ شقوتي ما تهمل
فاسكبي لي السّنا وطوفي بنعشي
ينعش الروح سحرك المتهلّل

(١) الدياجير : الظلمات ، جمع ديجور . الجنح من الليل : الطائفة منه .
مسبل : مسدل .

(٢) الحُضْم : البحر العظم المتلاطم الموج .

(٣) أعشى سوادي : غطى على عيني

أنت لي :

أنت نبعي ، وأيكتي ، وظلاي
وخيلي ، وجدولي المتسلسل (١)

أنت لي واحة أفيء إليها
وهجير الأسى يجني 'مشمعل

أنت ترنيمة الهدوء بشعري
وأنا الشاعر الحزين المبلبل

أنت تهويدة الخيال لأحزا
ني ، بأطيان نورها أتعلل (٢)

أنتِ كأسِي وكرمقي ومدامي
والطلا من يديك سكر محلل (٣)

(١) الأيكة : الشجرة الكثيفة المتلفة الأغصان .

(٢) أتعلل : أواسي النفس .

(٣) الطلا : الخمر .

أنت فجري على الحقول ، حياة
وصلاة ، ونشوة ، وتهلّل
أنت تغريده الخلود بألحا
في ، وشعر الحياة لَنُؤْمِهْلِلْ (١)
أنت طيفُ الغيوب رفرف بالرحم
سِ والطهر والهدى والتبتل
أنت لي توبة إذا زلّ عمري
وصحا الإثم في دمي وتملّل
أنت لي رحة براها شعاع
هلّ من أعينِ السما وتنزّل (٢)
أنت لي زهرة على شاطئ الأح
لام تروى بمهجتي ، وتظلل (٣)
أنت شعر الأنسام وسوست الفج
سرّ ، وذابت على حفيف السبل

(١) اللغو : الهراء الذي لا معنى له .

(٢) براها : خلقها وأوجدتها .

(٣) المهجة : دم القلب ، يقصد بها « الروح » .

أنت سحرُ الغروب، بل موجة الاش
سراق، عن سحرها جناني يسأل^(١)

أنت صفوُ الظلال تسبح في النـم
سر، وتلهو على ضفاف الجدول

أنت عيد الأطيـار فوق الروابي
أقبلي، فالربيع للطيرِ أقبل

أنت هولي، وحيرتي وجنوني
يومَ للحسنِ زهوةٌ وتدلُّ

أنتِ ديرِ الهوى، وشعري صلاة
لكِ طابت ضراعتي والتدلُّ

أنت نبع من الحنان، عليه
أطرق الفن ضارعاً يتوسل

أعين للخشوع تغري، فخلبـ
سها على لوعي تنفضُ وتُسبِّل^(٢)

(١) جناني : فوادي وقلي .

(٢) تنفض وتسبِّل : تغلق وتطبق .

واتركيها وسحرها يتبادى
علما « بابل » بنجواه 'تسغل

هو فني وملهمي .. فابعثيه
فهو من زهوه شحيح 'مبخل

يتغافى على الجفون ، فإت نا
جيته ، لج في الكرى وتوغل

وانتشى من سناك وانساب في الح
ظك يحسو الضياء منه وينهل^(١)

وانبرى من جفونك البيض كالآق
دار يُردى كما يشاء ويقتل

ليت لي من صراعه كل يوم
غزوة في سكون قلبي تجلجل

ولك الصوت ناعما عادة الشو
ق فأضحى حنينه يترسل

(١) يحسو : يرتشف .

نبرات كأنها شجنُ الأو
تارٍ في 'عودٍ عاشقٍ مترحّل' (١)
أو حفيفُ الأذانِ في مسمع الفج
رٍ نديّ الصدى، شديّ المنهل
أو غناءُ الظلالِ في خاطر الغدّ
رانٍ شمر في الصمتِ عانٍ مكبّل (٢)
أو نشيد أذابه الأفق النّا
ئي ، وغنّاه خاطري المتأمل (٣)
ولك البسمة الوديعة طهر
وصفاءً ، وصبوةً ، وتغزل
لذة الهمس في دمي تنقل الرو
ح لوادٍ بصفوحٍ عمريّ مظلل

(١) مترحّل : متنقل ومفارق .

(٢) عان مكبّل : أسير مقيد .

(٣) النائي : البعيد .

فاسكبها على جناني ، وخلصني
سحرها في مشاعري يتهدد

ولك الهداة التي تغمر الحس
فيروى من السكون ويشمل

واحة للجمال ، قلبي فيها
من أسي الدهر ناسك متعزل

علمتني ظلالها كيف أنسى
صخب الوهم وهو عصف مزلزل

ولك العفة التي عاد منها
« مريمي » الستور فوقك مسبل

فتمالي :

فتمالي نغيب عن ضجة الدد
يا ، ونمضي عن الوجود ونرحل

وإلى عشنا الجميل ، ففيه
 هزجٌ للهوى، وظلٌّ*، وسلسل^(١)
 وعصافير للمنى تتغنى
 بالترانيم بين عشبٍ وجدول^(٢)
 وغرامٍ مقدس كاد يضوي
 نوره العذب في سمانا ويشعل^(٣)
 ووفاء يكاد يسطعُ للندى
 يا بشرعٍ إلى المحبين مرسل
 عاد للعش كل طيرٍ، ولم يبـ
 تقَ سوى طائرٍ شريدٍ مخبل^(٤)
 هو قلبي الذي تناسيت بلوا
 ه' ، فأضحى على الجراح يولول

-
- (١) هزج : غناء ومرح . سلسل : الماء العذب الجاري .
 (٢) الترانيم : جمع ترنية ، الأغنية أو الأنشودة .
 (٣) يضوي : يتوهج .
 (٤) المخبل : المهنون ، من فقد الوعي والاتزان .

أقبلي .. قبل أن تميل به الريد
ح'، ويهوي به الفناء المعجل^(١)
أقبلي.. فالجراحُ ظمأى، وكأس الـ
حب نكلى، والشعرُ ناي معطل

(١) المعجل : السريع الأكيد الحدث والوقوع .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	هذا الكتاب
١٣	فتاة الخدر
٢٣	نعم
٤١	المؤنسة
٥٧	بشيئة
٦٩	لبنى
٨٣	عزة
٩٥	وامطرت لؤلؤا
١٠١	فوز
١١٣	وحيد المغنية
١٢٩	أراك عصي الدمع
١٤١	يا ظبية البان
	فاروق شوشه
	المنخل الشكري
	عمر بن أبي ربيعة
	مجنون ليلي (قيس بن الملوخ)
	جميل بن معمر
	قيس بن ذريح
	كثير عزة
	يزيد بن معاوية
	العباس بن الأحنف
	ابن الرومي
	أبو فراس الحمداني
	الشريف الرضي

١٥١	دوقلة المنبجي	اليتمية
١٦٣	ابن زريق البغدادي	قمر في بغداد
١٧٣	صفي الدين الحلي	مجلس الحبيب
١٨٧	ابن زيدون	أضحى التثاني
٢٠١	الحصري القيرواني	يا ليل الصب متى غده
٢٠٩	أبو القاسم الشابي	صلوات في هيكل الحب
٢٢٧	علي محمود طه	القمر العاشق
٢٣٩	إبراهيم ناجي	الأطلال
٢٦٥	محمود حسن إسماعيل	أقبلني كالصلاة

رقم الإيداع: ٢٣٩٧ / ١٩٩١
التقديم الدولي: ٨ - ٠٠٥٠ - ٠٩ - ٩٧٧

مطابع الشروق

التمائم ١٦ شارع حواء حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بتيروت ص ب ٨١٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

الموضوعية الاختيار ، المعتمدة في تصنيفها على ذوق عصري ، وفكر جديد ، يكشفان في الأثر الأدبي والشعري أبعادًا جديدة ويعيدان عرضه وتنسيقه وتنظيم جداوله وروافده .

وَأَثَرْتُ أَنْ تَكُونَ الْبِدَايَةَ قِصَائِدَ الْحُبِّ فِي شَعْرِنَا الْعَرَبِيِّ ، وَمَا أَكْثَرُهَا ، وَمَا أَحْفَلُهَا بِالْقِيمِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْفَنِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ . مَاذَا لَوْ اخْتَرْتُ مِنْ بَيْنِهَا أَجْمَلَ عَشْرِينَ قَصِيدَةً ، لِيُعِيدَ تَامِلُهَا وَتَذُوقُهَا الْقَارِئُ الْمَعَاوِرَ ، مَعَ قَدْرِ يَسِيرٍ مِنَ التَّقْدِيمِ ، لِلنَّصِّ وَالشَّاعِرِ مَعًا ، بِحَيْثُ يَتِمُّ وَضْعُ الْقَصِيدَةِ فِي إِطَارِ عَصْرِهَا ، وَفِي دَاخِلِ مَنَاحِهَا النَّفْسِيَّ وَالتَّارِيخِيَّ .

وَلَسْنَا نَزْعُ أَنْ هَذِهِ الْقِصَائِدُ ، هِيَ وَحْدَهَا أَجْمَلُ الْقِصَائِدِ وَأَرْوَعُهَا وَأَكْثَرُهَا تَمَثِيلًا لِحَقِيقَةِ شَعْرِ الْحُبِّ فِي دِيْوَانِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْكَبِيرِ ، إِنَّهُ مَجْرَدُ اخْتِيَارٍ خَاصٍّ ، سَاعَدَ عَلَيْهِ مِيلٌ وَهَوًى ، كَثِيرًا مَا تَجَاوَزَنِي إِلَى بَعْضِ الْقِصَائِدِ الْمَخْتَارَةِ ، فَعُشْتُ فِيهَا طَوِيلًا ، وَتَامَلْتُهَا كَثِيرًا ، فَلَمَّا سَنَحْتُ الْفُرْصَةَ لَوْضَعِهَا دَاخِلَ هَذَا الْإِطَارِ كَانَتْ أَسْبَقُ مِنْ غَيْرِهَا إِلَى ذَاكِرَتِي وَاهْتِمَامِي ، فَعُنِيتُ بِهَا قَبْلَ سَوَاهَا ..

إن شعرنا العربي على امتداد قرون متطاولة حافلة بالكنوز التمنية ، والدرر الكامنة ، تنتظر دائمًا من يجلوها ويعرضها .

وفي الوقت نفسه ، ما أندر المجموعات والمختارات الشعرية صدرت عن مكتبتنا العربية ، وحديثها ، لتضع بين يدي العربي ، والقارئ الأجنبي أيضًا ، تصوّرًا عامًا لروح الشعر العربي ، وإطارًا عامًا لأبرز شخصياته وأعلامه ، وأكثر ملامحه صدقًا وإصالة .

وظلت مكتبة الشعر العربي ، تعاني هذا الفراغ الكبير ، خاصة ونحن نتجه مع إيقاع العصر وازدحام متطلبات الحياة إلى المختصرات والمختارات : الميؤبة ،



© دار الشروق

الطبعة ١٦ شارع حواد حرس - هاتف ٣٩٣٤٥٨٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بتمويل من م ت ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٩٥ - ٨١٧٦١٣ - ٨١٧٦١٣